أصوات أدبية





نصف الساعة السعيد
من حياة س س

قصص

أحمد الشيخ

يناير ١٩٩٧

اصـــوات ادبــية
إسبوعية
الهيئة العامة لقصور الثقافة

المراسلات باسم مدير التحرير
على العنوان التالى
١٦ شارع أمين سامى
القصر العينى - القاهرة
رقم بريدى ١١٥٦١

تصميم الغلاف

للفنان عمر جهان

إهداء

لمصر المستقبل
ولماجدة الشيخ
شاركتنى أعباء المواطنة فاحتملت بسماحة نفس مصرية وبصبر وصلابة.
إلى زوجتى وهى بين أولادى من أجمل مخلوقات الوجود

أحمد الشيخ

طلوع المواطن عفت الطنبور

ابتهال شرعى

سبحانه الذى أعطى لعبده وابن عبده الغلبان رزقاً وفتح له الأبواب المسكوكة ، سبحانه واهب المواهب وأنصاف المواهب وأرباعها وفرافيتها لخاصة الخاصة وبعض الخاصة وأشباه الخاصة من بنى الانسان دون أن يميز بين الأجناس والألوان والعقائد ، وله فى ذلك حكمة تعلو عن الإدراك ، وأنتم فى نهاية المطاف مجرد حلقة فى سلسال الخلق منذ آدم عليه السلام ، ذلك الذى طرده الرب من جنته لأنه طاوع حواء تلك التى طاوعت الحية فحق عليها وعليه وعلينا القول، ومازلنا بسبب عصيانهما نسعى فى أركان تلك الأرض القاسية نادمين.

تجديف غربى

وفى الأرض جنة الإنسان وفيها الجحيم ، باختياره وحده يكون ، لولا جحيم الآخرين ، بذلك تكلَّم الرجل من بلاد الفرنجة وأوصانا فأخذنا منه الحكمة عسلاً صافيا وتركنا له سمَّ الأفعى فى قاع نفس الإناء ، وتأكدت الدنيا من براعتنا ، وبفضله سوف نرقى .

ابن الطبنور :

من أحشاء الكفر طلع ، لكنه تخطى زمن الخشونة وتنعم ، أصبح يصحو باختياره، فرق كبير يا سادة بين الصحو الجبرى والصحو بالاختيار ، صاحبنا عفت الطبنور يصحو على مهل ، ويفيق على

مهل، يتمطع مرتاحاً بعد شبع الرقاد ، اللهم لاحسد ، وعلام يكون الحسد ؟ وابن الطنبور بالفعل طلع ، لكنه بقدر ما طار وارتفع وبقدر ماعلا واندفع ، بقدر ما هو ى وكابد الوجع ومابين الطلوع والوقوع حكايات وروايات ، مساخر ومهازل وتصاريف أقدار ، اللهم لا شماتة، انه حتى لايستحق أن نقول عنه كما يقولون «عزيز قوم ذل »، واسمحوا لى وأنا رفيق عمره الأمين على سره أن أحدثكم عنه ، بالحق وحده سوف أتكلم ، وبالحق وحده سوف أترك لكم الحكم له أو عليه . وهل هو الآن طالع مثل الشهاب أو أنه نازل، حيرنى أمره ياسادة ، ولولا حيرتى ما بحت لكم بعشر معشار تلك الحكايات .

كنا فى الزمن الفائت نتلازم فى مشوار المدرسة مشياً من كفرنا إلى البندر ذهابا وعودة ، نتقاسم فى الفسحة لقيمات «البتَّاو» وأرغفة « السلاو» نغمسها بالجبن القريش فى الأيام التى تحلب فيها نسوة الكفر لبن البقر والجاموس ، لكننا فى أيام الجفاف كنا نسف بقايا الخبز المخزون ونلوك أصداغ اللفت أو نمضع أعواد السريس ، كان يشاركنى نفس الدكة ويحصل على المجانية الكاملة مثلى بفعل شهادات الفقرالتى نقدمها للإدارة التعليمية أيام طه حسين ، وبعدها طبعا ، وليس فى ذلك أى رغبة فى النيل منه أو محاولة لوضع اسمى بجانب اسمه دون مناسبة ، ربما يكون أبن الطنبور أكثر منى مالا أو شهرة ، لكنه لم يكن ولن يكون أبدا اكثر علماً ، وفى دنياه التى اختارها يعلو المرء مثل الشهاب وسرعان ما يخبو أو حتى ينطفئ

على العكس منى فـأناأخطو بحذر ، ببطء ولكن بهـدف ، مـا علينا ، يلزم أولا أن أنفى فى عقولكم تلك الأكاذيب والتشنيعات التى راجت عن ابن الطنبـور وسـرت بينكم مـسـرى الحـقـائق ، سـوف أعـود الى الأصول المؤكدة فى موضوع ابن الطنبور .

حط رجل غريب عند مدخل كفرنا ، أنزل خرجاً كان يحمله على ظهره وأسنده ألى جذع جميزة عتيقة ، غفا بفعل النسيم العليل أو من أثر التعب ، وعندما صحا نظر أمامه فوجد جرفاً مجاورا لبناية الكوبرى على جـانب التـرعـة ، وفكَّر فـى السكن ، ولم يطل به الوقت حتى انشأ لنفسه خصاً ورقدة ، قالوا فى الكفر سائل غريب أتعبه الطواف سعيا فى طلب الصدقات ، وقالوا انه طيِّعٌ مثل كلب أرمنت وقوى مـثل بغل اسـتـرالى ورعديدٌ مـثل أرنب برًى ، وقـالوا أن بنت بحراستخدمـتـه فـى نقل حمل خطب قطن إلى سطح دارها فى عـز ظهيرة ذلك اليوم من « بؤونة الحجر » وأنها استخدمته فى شىءآخر فـأظهر قـدرة ونال رغـيـفاً وفـحل بصل وطاجن لبن منزوع القشـدة، وقـالوا أن نسـوة الأعـراب من الغجر شـغلنه فـى كل شىء وبأى شىء حتى اكتشفه الرجال واستخدموه فى مساعدة المواشى فى تدوير الساقية أو نشل المياه الضحلة بالشادوف ، لكنه أظهر براعته أكثر فى تدوير «الطنبور» لأى وقت وبأى ثمن ، وهكذا تبدَّل اسمه من فرج الشحَّات الى فرج الطنبور ، قالوا أنه فرح بالتسمـيـة الجديدة وأنه كان يعرض نفسه على كل فلاح يفكِّر فى سقاية أرضه ويدوِّر الطنبور

، وأنه استجاب لبنت بحر وشارك الغجرية خصها واتخذته بشرع الله بعلاً ، ومهما قيل عن علاقته ببنت بحر الفاجرة ، فلابد أن ننظر الى الولد الذى ولدته الغجرية وماتت فى نفس الليلة على انه ابن الغجرية ولا علاقة لبنت بحربه اكثر من كونها أرضعته لا ندرى كيف ورعته وأسكنته دارها واسمته مصطفى على اسم الشقى مصطفى بحر الذى مات فى قره ميدان وأورثها كراهية الناس وسوء السمعة .

هذا ما كان من أمر فرج الطنبور الذى رحل عن دنيانا وأورث ابنه مصطفى مهنته وخصّه وعطف بنت بحر ، تلك التى ساعدته ليقيم مكان الخص داراً ، وزوّجته من « غالية» بنت «الغجر» الرُّحَلْ ، تلك التى خلّفت بحسب كل الروايات عشر بطون اكثرهم صبيان مما دفع غالية عندما ولدت صاحبنا لأن تشيع أنه بنت واسمها عفت ، وصدّق أهل الكفر ذلك عندما ثقبت له كلتا أذنيه وأدخلت فى كل ثقب خيطاً عقدته مخافة الضياع ، ويوم سعى مصطفى الطنبور بين المدرسة والبندر ومكتب الصحة ، ودوار العمدة اندهش الناس ، ولكن دهشتهم زادت عندما استخرج أوراقا لعفت تثبت أنه ولد يطالب بدخوله المدرسة ، وهكذا تتساوى رأس الطنبور بأعيان الكفر ومساتير الناس وأصحاب الحيازات ، ذلك الطنبورالذى لايحسن غير لفّ الطنبور وخلفة العيال وإطلاقهم فى غيطان الخلق مثل الديدان ، تلقاهم فى كل الشقوق و الأركان يفتشون عن أى شىء قابل للابتلاع ، لكن عفت أفلت من هذا المصير المحتوم وانكتب له السعد من غير

مناسبة ، لكن ناس الكفر لاتنسى ، لعلها تتناسى زمناً قبل أن تتذكر ماجرى مرة أخرى مثلما حدث مع ابن الطنبور ، ذلك الذى كانوا يتخذونه مثلاً يعايرون به الأبناء ويوبخون الكسالى بكلام يسمُّ البدن على امتداد السنوات الدارسية :

– ابن عديم الأصل العريان أشطر منك.

– الحافى ابن الحافى ناجح وأنت خائب.

– ابن الطنبور أخذ المجانية وجائزة من الناظر.

– ابن الطنبور مؤدب.

– ابن الطنبور جن مصوّر ، يرسم الناس الخالق الناطق.

وكثير كثير من مثل هذا الكلام قالوه وسمعناه ، كناً على امتداد سنوات الدارسة نشعر نحوه بالعداء أو الغيرة ، نحاول أن نتفوق عليه فى شيء ولا نستطيع ، الولد كان نابغة ، كل يوم يتقدم خطوة للأمام ، يحفظ الدرس بمجرد سماعه فى الحصة ، يرسم الخرائط كما أنزلت ، يرسم الدورة الدموية والهيكل العظمى وتجارب العلوم ببراعة ، يكتب الخط الديوانى والنسخ والفارسى والكوفى والرقعة ، كان معجزة جاهدنا أن نلحق به فلم نقدر ، تآمرنا عليه وعاركناه فلم نفلح فى النيل منه ، كان الولد مثل الثعبان الشراقى الأزرق ، يفلت من الحصار ويلبد فى حضن أولاد الكفور المجاورة فيجبرنا على مصالحته ، وكنا دون أن ندرى نفتح له أبواب دورنا، يتعشى مقابل شرح مسألة أو رسم خريطة أو توضيح تجربة ، لا أبالغ أن قلت لكم

أننى كنت أقـرب الاولاد لابن الطنبـور ، حـتى عندمـا دخل بسـبب براعته فى الرسم كلية الفنون ودخلت الحقوق ، ساكنته لعام كامل اشتـغل خلاله فى أعـمال كثيـرة ، كتابة اللافـتات بالزيت والخشب والنيـون ، رسم صـور للطلبة والجيران وأصـحاب الدكـاكين ، عـمل تماثيل من الجبس ودهانها وبيعها ، تحبير الخرائط لطلبة الهندسة ، وأشياء أخرى لا أذكرها كانت تدر عليه المال ، لاأكتمكم القول ان اعترفت أنه عيَّشنى على حسابه فى الكثير من الأوقات ، وحصلت لى ظروف وعـدت إلى الكفـر ، بقى هو لكن الخـيط ظل مـوصـولا بينى وبينه، كلما جاء الى الكفر التقينا ، وكلما تقابلنا استعدنا كل ما كان بيننا ، هو الوحيد الذى كنت أستعيد - عندما أكون معه - طفولتى وصباى وصدر شبابى ، شىء واحد هو الذى ضايقنى فى الكفر ، كلام الناس عن ابن الطنبور وكيف قبلت على نفسى مشاركته السكن ناسياً أصله وفصله ، كانوا يتحدثون عن مصطفى الطنبور ولبدته التى زَّيتت حوافها ولم يغيِّرها ، كنت أدافع عن صاحبى وأقول لهم تلك الحكمة القديمة « أصلك فعلك » لكنهم كانوا يسخرون منِّى، حتى جاء الوقت الذى تبدَّلت فيه أفكارهم عنه الى المعكوس ، الناس تتغير ياسادة ، أو فلنقل أن ابن الطنبور غير نفسه خلال تلك السنوات التى عاشـها فى تلك المدينة ، تداخل مـع الكبار ، ومعرفة الكبـار كنوز، وسوف أوضح لكم ذلك .

كان لواحد من أهالى الكفر مشكلة قديمة مع الشـهر العقارى ،

ذكرها فى حضور ابن الطنبور فهز رأسه وطلب من الرجل أوراقه التى تحتاج إلى توثيق ، وعندما ذكر له المصاعب ألتى لاقاها والتى لم يفلح العمدة فى تذليلها ، هوّن عليه الأمر ووعده بالحل فى صباح اليوم التالى ، أقول لكم الحق ، ناس الكفر أصابها الخرس قبل أن يصدقوا أن ابن الطنبور حل المشكلة وهو جالس فى مكتب المدير يشرب القهوة وصاحب الأوراق يشرب الشاى ، ولم تكنْ تلك الحكاية غير بداية لعشرات الموضوعات التى أنجزها ابن الطنبور ، مامن مشكلة فى البندر أو المحافظة الا وأفلح فى حلها بنفسه أو بموجب «كارت » حمل اسمه .ويضع كلمات للتوصية ، وصل الأمر إلى أن بعض أكابر الكفر كانوا يأتون ليسألونى عن موعد مجيئه الكفر إذا غاب . كان فى كل المصالح لابن الطنبور معرفة قادرة على تطويل رقبته أمام الناس ، وأصبح من المألوف أن نسمع الكلام الآخر عنه ، أصله طيب ومنبته حلال، غيره ما كان يشغل نفسه بأمثالنا ، وفى سوق البندر كان أهل كفرنا يتباهون على أهالى الكفور المجاورة لأن ابن الطنبور مولود فى زمام بلدنا .

كنت أقلّب صفحات الجريدة اليومية عندما استوقفتنى صور ة مرسومة لأحد الأكابر ، صورة الكبير مألوفه ولكن غير المألوف هو ذلك التوقيع على صدر سترته « الطنبور » ومع معرفتى لإمكانيات صاحبى فى رسم الصور لم أتيقن ان كان هو من رسم صورة الكبيرأوأنه غيره ، واذا كان قد وصل بمعارفه إلى هذه الدرجة فلا بد

أن الولد أخطر من كل حساباتى عنه ، وقد تأكد لى ولهم ذلك بالفعل، عشرات من صور الأكابر بريشة الطنبور وعشرات أخرى من الرسوم الكاريكاتورية رأيناها لابن الطنبور ، وسمعناه يتكلم فى جهاز الاستقبال ورأينا طلعته على شاشة التلفاز الملون وهو يشرح رسومه بنفس لهجة كفرنا المميزة بتعطيش الجيم ومط نهايات الكلمات ، أقول لكم الحق فرحنا به بقدر ماخفنا عليه ومنه ، ومن جديد ناقشنا أصله وفصله ، وعندما نزل الكفر قوبل بترحاب من الكبير قبل الصغير ، وهمس مصطفى فى اذنه بدعوة على العشاء فى الدوار ،

قال العمدة وكان فى انتظار ابن الطنبور للرجال فى دوّاره :

– البيه عفّت رفع رأسنا ياأهالى الكفر ، فكرُوا له فى عروس تليق ، بدلا من بنات البندر

– تبادل الرجال النظرات ، ربما لأنهم فهموا أن العمدة يعرض ابنته الوحيدة بشكل غير مباشر ، يريد منهم أن يفاتحوا ابن الطبنور من بعيد ويستكشفوا نواياه ، وهى للحق مال وجمال وأصل ، عقب الحاج لطفى كبير أعيان الكفر :

– بالحق ياعمدة ، دخوله أى دار يشرفها .

وأومأ الرجال كأنما يعلنون موافقتهم مدركين أن كبير الأعيان هو الآخر يعرض موافقته على ابن الطنبور إذا تقدم خلافاً لكل ما كان يشيعه عنه فى السابق من أنه واطى وأبن واطى ، ومهما علا قدره فهو خسيس ، يعيش خسيسا ويموت خسسا ، أو هكذا قال فى

السابق .

لكن ابن الطنبور خيَّب رجاء الكل وقالها بغلظة وبدون مواربة فى وجه الكل عندما حدثه الشيخ فى الأمر :

– كلام فارغ ، أى زواج ؟ ومثلى إذا فكر فى الزواج هل يتزوج من مثل هذا الكفر ؟ هل انتم فى غفلة ؟

بهت الجميع وأولهم العمدة والأعيان والأكابر ، وشاعت فى الكفر الحكاية وتكاثرت الأقاويل ووصل الظن بالبعض إلى تفسيرات

– ربما كان يقصد بنت الشيخ لطفى .

– ربما ليس له فى الحريم شأن من أصله.

– ولماذا لا يكون على اتفاق مع واحدة من بنات الأكابر هناك

– كل شيء مع ابن الطنبور جائز.

– ياناس اتركوا الملك للمالك ، هل أنتم اولياء أمره؟

مصطفى الطنبور نفسه لم يجرؤ على مفاتحته.

– لكنه أو شك على إكمال الاربعين من عمره.

وكلام مثل هذا كثير قلناه ، لكن المرارة ظلت فى الحلوق تتخفى وتحاذر من الانطلاق ، والناس فى كفرنا تخاف من هم على علاقة بالأكابر أكثر من الأكابر ، ومن يدرى ، ابن الطنبور رسَّام الأكابر ، يلتقى بهم ويتحدث اليهم ، وقد بانت أمارات عديدة لسلطانه على الرؤساء فى البندر والمحافظة ، فمن من أهل الكفر مجنون ليرمى نفسه فى النار مقابل كلام فارغ فى حق ابن الطنبور ؟

والكل عارف أن مثل هذا الكلام يشيع ويسرى فى دروب الكفر أسرع من سـريان النار فى الحطب المـرصـوص على سطوح الدور فى مواسم الرياح .

حكاية القصر القديم والبناية الجديدة:

فى البندر ابتنى الباشا الكبير من قبل أن نولد قصرا ،فتّحنا عيـوننا فـوجدناه هكذا ، عالى البناية والأسـوار وله بوابات حـديد وبواكى وشرفات عالية تطل على الأربع جهات ، ونادرا ما كنا نلمح أحفاد الباشا الذين ورثوا قصره ، لكنه كان يحدث فى أمسيات الخميس إن تصادف مرور أى واحد منا ناحية القصر فيراه وقد أضاءته أنوار النجف اللّماع واللّمبات والكشّافات ، ومن العمق نسمع أصوات آلات الموسيقى التى لا نعرفها وهى تعزف عزفاً يبعث فى النفس الارتياح والسكينة ، كنّا فى بعض الأحيان نتوقف أو نتباطأ فى خطواتنا ونتهامس عن أولاد العزّ القديم من أ صحاب الرتب والمعالى والأملاك ، وكان الآباء يرددون نفس الحكايات عن الباشا القديم الذى كان وزيراً فى وزارة سعد زغلول «دخل على السلطان فؤاد فوجدالملك جورج الخامس على صدر المائدة ، قال الباشا الكبير لملك الانجليز بلسانه:

– اسحب جيشك يا ملك الانجليز من أرض بلادى ...

ولم يكمل الباشا عبارته لأن السلطان فؤاد أمره بالسكوت ، خرج من القصر غاضبا وقدّم لسعد الاستقالة فغضب سعد وذهب الى

قصر الملك وقدم الاستقالة ، وهاجت البلاد وانقطعت السكك وأضرب العمال والطلبة وأهالى البلاد من كل المهن ، وهتفوا ضد الملك جورج الخامس والسلطان فؤاد »

وحكايات كثيرة قالها لنا الأباء ، منذبا ما هو حقيقى ومنها ما هو من نسج الخيال ، لكنه كان يبعث فى نفوسنا الجسارة ويشعل الحماس ، يقول من عاشوا زمن الباشا الكبير أن الرجل كان شهما وكريما وأنه أعطى من ماله لشباب الناحية وانه ساهم فى بناء الجامعة وعاش بعيداعن الأضواء ، لكنه أوحى للنحاس بالغاء المعاهدة ويقولون انه مات بعدها بأيام ، ويؤكد الطبّاخ العجوز أن الانجليز احتالوا ووضعوا له السم فى مقبض العصا التى كان يتوكأ عليها ، وأنهم عرفوا من جواسيسهم من أولاد العرب أن الرجل كان وراء تلك الهجمات التى كان أولادالبلد يقومون بها على معسكراتهم ، وأن الرجل كان يعطى للشباب السلاح والمال لقتال الانجليز ، ويؤكد الطباخ أن الباشا الكبير أوصى أولاده قبل أن يموت بمواصلة ما كان يقوم به من تمويل الشباب الذى يحارب الانجليز وأن ثلاثة من أبنائه قتلوا تباعا بالفعل فى مدن القناة وهم يحملون السلاح.

هذا ما كان من أمر القصر القديم وسيرة بعض أصحابه ، أما ما كان من أمر ابن الطنبور فقد كان يختلف ، وفى كل الحالات لا علاقة بين الباشا وابن الطنبور إلاَّ فى شىء واحد وهو الرغبة فى سكنى القصور ، ذلك أن ابن الطنبور بنى بناية لها العجب بعد أن اشترى

ارض الخواجة اليونانى المزروعة بالموالح وكافة الفواكه، قالوا أنه اشتراها بتراب الفلوس، وأن وراء ذلك علاقة بين ابن الطنبور وأحد أكابر الناحية البعيدة ، ذلك الذى كانت له معارف بناس من موظفى الحكومة ، كبير الناحية البعيدة عرف سرَّ الأرض الواقعة فى الدين وسرَّ الخواجة اليو نانى المطلوب تسفيره من البلد ، يقولون أنه كان فى الأمر تلفيقة الهدف منها هو التخلص من اليونانى وتمليك ابن الطنبور ، بل انهم يقولون ان كبير الناحية البعيدة سهَّل له الحصول على قرض ثمن الأرض من بنك « الكريدى ليونيه » مائه فدان شرخة واحدة ياناس امتلكها ابن الطنبور دون أن يدفع من جيبه شيئاً ! لا شريك له فى الملك وهو الوهَّاب .

كانت حديقة اليونانى مزروعة ومحاطة بأشجار الكازورينا والأسلاك الشائكة التى تمنع اللصوص ، والخفراء حملة البنادق ذوى القلوب الجسورة ، وكل هذا صار من أملاك ابن الطنبور ، لكنه نظر إلى بعيد ، صمَّم رسماً رائعا واستدعى مقاولا كبيرا ليفتح وسط الحديقة طرقا ويبنى فى منتصفها بناية عجيبة على مساحة تقرب من الفدان لها شكل عجيب ، فيها ارتفاعات وانخفاضات ومساحات خالية وأخرى مزحومة ، شىء يفهمه من يعرفون الهندسة والمعمار ، أما نحن أهل الكفر فقد كنَّا نحسبها كما اعتدنا ، بالقاعة والمندرة والمقعد ، المهم أنه عمل شيئا جديدا غطَّى على قصر الباشا، تراه وأنت عابر على السكة الزراعية من خلال الطريق المرصوف فى قلب

الأرض ، بناية عالية ومنخفضة ومدهونة بألوان خلابة، قال من حضروا حفر الأساسات أن فيها ثمانون مندرة وقاعة وباحة ، تحتها حجرات مسروقة من بطن الأرض وفوقها ما يزيد عن المائة حيز مسكوك بأبواب ، ومن فوق المقاعد أبراج على أشكال القباب والمآذن، بنايات في وسع يا سادة، والأرضيات بالرخام الأبيض وخشب الأرو ومن فوقة السجاد العجمي والمفروشات وفي السقوف النجف والكشافات واللُّمبات، وكل المساحات مفروشة بقدرة ، تماثيل وتحف وأزرار تدوس عليها فتنفتح لك الحيطان أو تهبط عليك من السقف سلالم ، وفي كل الأماكن ثلاجات وغسالات وسخانات غاز وكهرباء وشمس وأفران من كل صنف ونوع ، شيء كأنه السحر يا سادة، ولابد أن مصطفى الطنبور كل يخاف دخول تلك البناية التي يحمل مفاتيح كل أبوابها، اكتفى الرجل بذلك المربع القديم الذي كان يخص أحد خفراء الخواجة اليوناني الراحل في ظروف يعلمها الله ، بوصة في بوصة وليس فها بيت أدب ولا فرش ، مجرد حصير متآكل الأطراف وبطانية متها لكة وكالحة من مخلّفات الجيش ، ولا من جليس أو ونيس معه غير تلك المرأة التي هدّتها الخلفة والحرمان فكفّ بصرها وثقل سمعها ولسانها فصارت تتحرك باللمس أو تزحف بالغريزة وحدها في اتجاه اللقمة ، وربما يكون بقاؤها على قيد الحياة لحكمة ، فقد دفنت في وعيها سبعة رجال من أولادها، ودفن مصطفى الطنبور في حضورها واحدة من البنات حية في الخص القديم ، وتاة ولدوينت منذ سنوات طالت إلى حد النسيان أو طلب

الرحمة لهما إذا انفتحت السيرة فى وجود مصطفى الطنبور، ذلك الذى لم يتبدَّل من طباعة شيء ولم يغيِّر « لبدته» القديمة أو مداسه الغليظ أو فكَّر فى تفصيل مقطع قماش من تلك التى كان يأتى بها ابنه من أفخر أنواع الصوف الانجليز ى ، حتى العباءات من كل لون وشكل كان يخجل من وضعها على كتفه فيكتفى برصها فى دولاب الحائط وبين طياتها حبَّات النفتالين ، وعندما كان ابنه يأتى بسيارته الزرقاء كان يجرى خلفها بكل عزمه ، ثم يفتح له الأبواب وهو ينهج مفتوح الفم ولايتحكم فى بعض اللعاب .

فى «المضحكة» كنا نلتقى بليل، هى ركن براح ، فيها الأكل والشرب والتدخين وكل واحد وما يريد، لوازم السهر فى كفرنا السعيد بقدوم ابن الطنبور ، وكل أصحاب الزمن الفائت يأتون بلا دعوة ، عندهم دعوة مفتوحة وبون استئذان حتى ولو سحب الواحدمنهم وراءه عشرة ضيوف ، فمجُرد أن يعرف الواحد منهم أن عفَّت بك وصل يبلغ الآخر أو حتى لا يبلغه لكنه هناك فى المضحكة تبدأ السهرات ، نكات جديدة يلقيها ابن الغباشى ببراعة الساحر فيأسرنا ويتوه أدمغتنا مع الشرب والدخان خيالات ومبالغات وقفشات متتابعة ، نكتشف ان ابن الطنبور يرسم منها مالا يخدش الحياء أو يخرج كثيرا عن العرف والأخلاق الحميدة ، وينشره فى تلك المجلات والصحف السيارة التى يأتى بها وهو راجع لنراها ، يقول بلا مواربة ونحن نقلب الصفحات

- كل هذا من طرح المضحكة ، لولا ها مارسمنا .

لكن الأمر لم يكن كذلك ، الولد باح لى مرة بأن المضحكة التى يملكها هى مجرد نموذج مصغَّر لعشرات مثلها يملكها أكابر البلاد البعيدة ، وأنه فى حقيقة الأمر يأخذ النكات والقفشات ويلقيها على مسامع هؤلاء الكبار، وبسببها دخل الهيئة من أوسع الأبواب .

بنت الأكابر :

حد ثنى عنها وهو فى حالة سكر بيِّن ، كنت أنا وهو والرب ثالثنا : « للأكابر حيل وألاعيب ، البنت كبرت وفاتها قطار الزواج ، والكبير دعانى لأن أرسم له صورة ، رسمتها وأعجبته ، لكنها أعجبت البنت اكثر ، وفهمت الرسالة ، كان على أن أرسمها بحذر ، فلاح حويط شاف المرار وجاءته الفرصة ، أخفيت تجاعيد الوجه ونوَّرت العينين المطفأتين ، زوَّدت الأحمر فوق الخدَّين ونثرت على الوجة نضارة ، حامت حولى وتجاهلت الصورة ، وعشق العوانس غواية فيها حساب الربح والخسارة ، قلها لى فانت وحدك الذى تستطيع ، نَّهاز ابن نهَّاز أسلم قياده لنهأَّزة بنت نهَّاز كبير، والحياة يا صاحبى فى جوهرها فرصة ، إن لم تنتهزها انتهزها من هم أقل منك موهبة ، راقب الأمر جيدا، أغلبيتهم أنصاف ، صدقنى انت لاتفهم أى شىء عن الرسم أو أصحاب المواهب الحقيقية ، خذها منىٌّ حكمة ، تتسلط الأَضواء على الأنصاف دوما ، هاهو فنان حقيقى وبشهادة الخصوم يأتى وتتاح له فرصة العمر فهل كنت أتركها ، سبع سنوات من زواج

عقيم امتلكت خلالها كل شيء ، البريق والبناية والأرض واستجداء الأنصاف نكتة أو قفشة ، أحفظها وأرسمها سدُّ خانة ، هل انطفأت مثلما انطفأت عينيها في الزمن البعيد، قلها لي انت الذي تعرفني أكثر من الكل ، هل أخطأت خطأ فادحاً لا علاج له عندما أسلمتها قيادى والعصمة فصرت لها ظلا ، أن تكون مجرَّد ظل يتردد اسمه أو تنتهي إلى العدم ، كل العدم ، للأكابر حيل وألاعيب وأنا مجرد ولد طالع من كفر واسمه الطنبور ، فهل أنا بالفعل اسم على مسمَّى وهل ترى وجه الشبه بيني وبين الطنبور ؟ وان كنت لاتراه فاين مخرجي بعدما انغرست وغطست في وحل التبعية لبنت الأكابر ؟»

عرفتها أول ما دخلت بسيارتها الطريق المؤدى للبناية ، وكأنما كان مصطفى الطنبور في انتظارها ، جرى مثلما يجرى كلب مطيع ووقف يلهث ، يقلِّب المفاتيح فلا تسعفه العتمة ، كنا في المضحكة نضحك ، تبادلت مع ابن الطنبور نظرة العارف لهوية القادمة ، كانت نحيلة وعجفاء أكثر مما كنت أظن ، ترتدى أشياء فضفاضة يصعب أن أسميها بالأسماء المألوفة نظرت في اتجاهنا بالتفاتة استهانة وعندما فتح لها الطنبورالبوابة لم تدخل ، تحركت في اتجاه باب آخر ، ومصطفى الطنبور يتبعها ، يبربش بعينية ويتحسس المفاتيح ، ثم يتقرب منها وهي تتباعد ، يزداد رغبة في الاقتراب وتزداد رغبة في التباعد ، متعالية وجافة كأنها لم تكن من لحم ودم، وفي واحدة من تلك الالتفاتات العفوية بدا لها أنه تلامس معها بشكل عمدى فشاطت

غلاً وغيظا وقد سقط عليهما شعاع الكشّاف الكبير ، زغدت الرجل في صدره وهي تصرخ :

– ابعد يا بهيم . ابعد بعيد.

كان من الممكن أن يتدخل صاحبي ساعتها ، يبيِّن لها أن مصطفى الطنبور ليس بوابا أو خادما أو حارسا وإنما هوأب، قلت لنفسي انه مادام لم يتدخل فلا بد أنه يعرف أنها تعرف هوية الرجل ، ذلك الذي كان ينظر ناحيته مستجيرا وطالبا الحماية فلما لم يجدها زام محتجا وبرطم :

– ايه يا ست هانم ؟

وكأنها بريخ وانفتح ، سبت الرجل وبنا بلده ، بصقت في اتجاهه عده مرات فانكمش على روحه أولا وتراجع قبل أن يخطو في اتجاهها عدّة خطوات وحاول أن يضع راحتيه على رأسها :

– رأسك أبو سها ياست هانم ، انا غلطان لك والغلط مردود ،

وفي غمرة الغضب العارم ورغبة الطنبور في نيل السماح بتقبيل الرأس ورفضها المتباعد انخلعت باروكة الشعر عن رأسها ورأيناها مثل محمود الأقرع ، قراعها يلمع في الضوء ، ضحكنا ووقف صاحبنا مكانه ، كأنه مدقوق بمسا مير ، والمرأة تخلع مداسها بيد وبالأخرى تسقط لبدة مصطفى الطنبور ، و بكل عزمها ورغبتها في التأديب بالضرب تحاول ، صحيح أن المداس لم يطل رأس الرجل أكثر من عدة مرات وأن أكثر الضربات نزلت على ساعديه وأكتافه

وأصداغه وقفاه ، لكنها بكل الحسابات طالت رأس الرجل على مرأى ومشهد من ضيوف المضحكة مضافا إليها أطنان من الشتائم القبيحة وغير القبيحة قالتها ، على غفلة منها ينقض ابن الطنبور ويحتضنها من الخلف، يرفعها عن الأرض ويطلب من مصطفى أن يناوله الباروكة التى كان يحتفظ بها فى يده مازال كأنه خائف إن هو أسقطها فسوف يفسدها أو تتلوث بالتراب ، كانت هى ترفس الهواء فى اتجاه مصطفى الطنبور حتى استطاع صاحبنا أن يحصل على الباروكة من يد ابيه بحركة بهلوانية بارعة ، ولا ندرى كيف أفلح فى تهدئتها أو قبلت هى أن تهدأ لفترة تكفى لإعادة الباروكة مكانها على الرأس الخالى من الشعر ، ولا ندرى إن كان قد تركها عفّت باختيارها أو غصباً عنه لتستأسد من جديد على الرجل الذى سقط من أثر الضربات والزغدات التى طالته ، سقط فى استسلام وفى عينيه رجاء قتيل يطلب العفو بعد فوات الأوان ، ورغم سقطته لم تكف هى عن السّب واللّعن والبصق، حتى عندما بدا لنا أن صاحبنا أفلح فى التأثير عليها وتهدئتها وإدخالها من أقرب الأبواب المفتوحة لم تبطل سيل الشتائم، تباعد الصوت لكنه ظل هناك ، وعندما ساعدنا مصطفى الطنبور على الوقوف ووجهناه ناحية سكنه زحف بقدميه مثل دودة قطن جريحة ، ثم رأينا صاحبنا وقد عاد مخطوف الوجه يلهث وعيناه لا تستقران على مكان ، ويبدو أنه عندما اطمأن إلى ابتعاد الرجل عن المكان هدأ قليلا ، تحيّر كيف يبدأ الكلام قليلا ثم قال وهو ينظر فى اتجاه الرجل :

– رجل غشيم ، شكله يقرف ، وكلامه يقرف وثيابه تقرف ولبدته تقرف.

شعرنا بالقرف ، بل إن الأمر زاد عن ذلك فقد كادت المضحكة تتحوّل إلى محزنة لولا عودة مصطفى الطنبور فى تلك اللحظة، محنياً يبحث عن ضالته والرأس عار ، رآهاوقد تدحرجت أسفل واحدة من كنبات المضحكة ، فانحنى اكثر وأخذها بلهفة وحطهًا على رأسه فضحكنا ، أضحكنا أكثر أن الرجل اقتعد الأرض بنفس الخنوع المقيت ، ولا أحد يدرى ما هو السر الذى دفع صاحبنا للقيام والاقتراب منه ليقذف ألّلبدة بعيداً عن رأسه ، يمسكها بقرف ويرمى بها فى موقد الفحم المشتعل ، يحول بينها وبين الرجل الراغب فى استعادتها بكل قوة وبدا لنا أن هناك ثأر قديم ومخفًى فى الأعماق، موغل فى داخل الداخل وقد لا يشفيه رائحة اللّباد القديم المشتعل ، ولا هزيمة الرجل إلى حد التدمير ، ربما يكون قد شعر بشىء من الارتياح أو زيادة الألم الى حد اليأس من كل شىء ، لكن الّلبدة احترقت وانوفنا انزكمت وما كان فى بطوننا من طعام المضحكة وشرابهامستقراً بدأ فى الحركة التى تسبق الانفلات من الأفواه دون انفلات ، وكان صوت المرأة القرعاء يأتينا من خلف الجدران ويؤكد مقدرتها على استخدام رسّام المساخر وأهله بحسب هو أها وإرادتها وبضرب المداس .

نصف الدينا ١١/ ١٠/ ٩٢

نصف الساعة السعيد
فى حياة المواطن سين سين

اقتحمته الفكرة اقتحاما وعلى غير توقع بينما كان يشارك بحسن الاستماع والمشاهدة فى محفل لملم أنصاف موهوبين وأنصاف مرضى وحمقى يطالعون أوراقا كتبوا فيها كلاما موزونا بلا قافية ، البارع منهم كان يجلجل صوته يستجدى تصفيق الجمع الجالس فوق مقاعد خشنة ، تنين محبوس يتعزى بسماع الإيقاعات المتخاذلة المختلفة ، ويصفق ، تعلو أصوات شنعارير وأطراف التنين الوادع تستسلم أكثر .

كان المواطن سين سين يجلس فى عين التنين وديعا .. شقيانا باستسلامه وفساد السهرة ، تغزوه فلاشات الكاميرا ووجوه الشعراء الكذبه ، سعيدا على نحو غامض لأنه لم يفكر فى كل عمره أن يرتكب مثل هذه الحماقات الموبقات التى شاعت فى وطنه والأوطان المجاورة منذ أزمنة ضاربة فى القدم ، ولأن الجرأة من صفات الأدعياء والتبجح يستدعى الهياج والاحتجاج والصخب أو يولد عند البعض الرغبة فى النعاس ، فقد نعس المواطن سين سين وأفاق على «زغدة» فى جنبه وجلبة فى مواجهته وهمهمات وطنين وصخب « عين عين » «عين عين » وعندما فتح عينيه رآها .. ومكبر الصوت يجلجل :

– الشاعرة « عين عين»

انتبه المواطن سين سين لها ولنفسه وبدأ فى رصد الإيقاع وتفسير الكلمات ، متعاطفا فى حماس لأن موضوع القصيدة

استهواه وولد فى قلبه الصبى مشاعر جاهد أن يخفيها ويداريها زمنا ، ويروى أنه فى لحظة جسارة فائقة نادرا ما تواتى أمثاله من الرجال الذين توسم فيهم خلق الله الحكمة والحنكه جرؤ على أن يتخذ قرارا حرا بأن يعيش نصف عمره الثانى على هواه وكما ينبغى لمثله أن يعيش ،

* * *

« أنت يا سين سين شخص مرموق ومواطن صالح ، ثم انك فعال وصانع، ولك موقع لا يستهان به فى تلك المجلة شديدة الانتشار فى أوساط المثقفين من المحيط الى الخليج وأنت أيضا تعرف أنهم يعرفونك جيداً ويسعون إليك فى حماس دائم طمعا فى رضاك عنهم والتنويه بقصائدهم أو نشرها .. ثم إنها يا سين سين مبتدئة لو انشغلت بها أكثر سوف تكون هدفاً للأقاويل والتشنيعات والعاقل ياسين سين من يلجأ إلى مساحة ظل يسكنها فى هذا الزمان اسحبها من ذاكرتك يا سين. بمثل هذه العبارات كان المواطن سين يتحدث إلى نفسه وهو يعبر النهر من الضفة اليمنى إلى الضفة اليسرى ماشيا باختياره فى منتصف الليل والمدينة ساكنة وغفلانة عنه ، لكنه عندما وقف على شاطىء النهر بعد أن عبر كان يراها على سطحه ويردد شطرة من قصيدتها تتشابه مع غنوة لأم كلثوم من شعر شوقى« وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا »

صحيح أنه حدثت أشياء كثيرة بين فعل الرؤية واتخاذ القرار على ضفة النهر ، وصحيح أن المبررات كانت بحساباته هو دواع كافية

لأن يخوض التجربة ، لكنه أيضا كان بحسابات الأخرين شططا لا لزوم له ولا تفسير ، على الأقل فى نظر زوجه وأولاده الكبار الذين كان يساكنهم فى الضفة الآخرى .. كانت هى قد ارتسمت على سطح النهر كله وجها مأمولا وطولا فارعا يحجب كل ماوراءه وينفى كل ما كان قبله من حقائق معاشه .

* * * *

واجه المواطن سين سين والجميلة عين عين إعصار ا من الأكاذيب والاشاعات والافتراءات ، وفسر العقلاء والأوغادالأمر على أنه حالة هلع جنسى أو مراهقة متأخرة ، ولأنه كان يعايش فى أوساط الكتبة والشعارير أنماطاً من البارعين فى التأليف المجانى لاستجلاب الضحك والتشفى فى عباد الله الصالحين والطالحين أيضا . فقد مد المواطن سين سين الخط على استقامته غير عابىء بتلك الحزازات المهينة السائدة .. وعقد عليها قرانه .. عنادا أو جرأة أو قطعا للألسنة أو رغبة فى التحقق أو توهما بأن الحياة الحقيقية تبدأ بعد الخمسين.

* * * *

* رأت على وجهه إمارات عشق فاستراحت وتراخت تبوح له بمكنون صدرها ، عن ذلك الزمن الذى حرمت فيه من معاشرة الأب لأنها ولدت يتيمة ، طوحت رأسها بدربة فاسدلت خصلات من شعرها الذهبى الهفهاف وغطت بعض الصدر وكل الكتفين ، فقرر أن يعجل بالدخول .

* كان صوتها المهموس سلاحا فى حنجرتها لكنها لم تشهره نزاهة ، بل زهوا شرعيا لحظة أن باح لها بأنها قدره المخبوء ومستقبله الآتى فى سراديب نصف القرن الثانى من عمره الممدود.

انعكست صورتاه على سطحى حدقتيها بالتتابع فاندهش لأنه كان اكثر وسامه مما كان يعتقد ويظن ، فطلب من الرب الاله أن يثبِّت اللحظة دهرا ، ورجاها أن تثبت على تقاطيعه حلكة سواد عينيها فثبتتهما ولم تبخل عليه بولادة أمله المنشود وسط العتمة ..

ليلة الدخلة تلامست الأطراف وسرت فى الأوصال رعشات طالماابتغاها وابتغتها .. وبحسابات الزمن الخسيس فاتت نصف ساعة وثلاث ثوان حسب التوقيت المحلى لمنطقة الشرق الأوسط .. تزيد أو تنقص قليلا وعلى الغرباء والكارهين مراعاة فروق التوقيت .. ولكنهما على أى حال تواعدا على الوفاء ونيل الحب وارتياد الأمسيات الشعرية . .

* * *

فى الليلة التالية التقى المواطن سين سين بالشاعر كاف عين ودعاه من حر ماله على زجاجة منكر شر باها دون هوادة فسرسب المواطن سين سين مشاعره بعفوية وثقة قبل أن يذهب إلى بيته الجديد ويرقد فى غياب منتشيا لمقدرته الفذة على معرفة عنوان البيت ورقم الشقة ومكان الرقاد ، لكنه فى الصباح التالى أشاع الشاعر كاف عين أن صاحبه سين سين يرقد محموما فى داره ويستجدى المعارف والصحاب إطلالة أو همسة تشجيع لأن هموم

الدنيا زادت بسبب تلك الزيجة التى لم يحسب حساباتها بوعى .. ولا أحد يدرى الا الله تبارك وتعالى ان كان ما أشاعه الشاعر محض اختلاق وتأفق وزيف ، أو أن له ظلاً من حقيقة بعبع بها المواطن سين سين فى تلك الامسية على غير وعى منه بما انفلت به لسانه .. لكنه على أى حال .. ومن باب الأخذ بالأحوط يلزم أن نؤكد أن الشاعر مصدر الرواية قد اشتهر بالبراعة فى صياغة المدائح والهجاءات على نهج قدامى شعراء الأزمنة الجاهلية .. وأنه أيضا كان يسطو على قصائد المعاصرين ويقلبها كما تنقلب الجوارب الحريمى الرقيقة التى يصعب معرفة وجهها من قفاها الا لذوى الخبرات الفائقة ، وأنه أيضا وإحقاقا للحق جوَّاب آفاق ساخر ينفذ مثل السهم فى المحافل اعتمادا على ما حصله فى سنوات الجدمن قصائد صمَّها ، وملح وطرائف حفظها ، ونوادر اشتهر ببراعته فى ذكرها .. وكان فى كل الجلسات يعتمد على كسل الدارسين لأمهات الكتب التراثيّة أو حتى جهلهم بها – وكل ذلك رغم نوايانا البادية لكل ذى فطنة لا ينفى احتمالا قائما بأن العراك الذى دار بين المواطن سين سين والجميلة عين عين كان بسب الغفلة .. غفلته أو غفلتها أو غفلتهما معًا مما تسبب عنه ذلك الخلاف الحاد والصراع على البعد بينهما ، ذلك أنها بسبب ما سمعته طاش صوابها أو أنه كان من البداية طائشا .. وتاه وعيه أو أنه كان قبل ذلك تائها .. لكنه جرى ما جرى .. وهجرت هى بيتها الجديد ورحلت وتحصنت بالقديم لا تبرحه .. وهو ما كف عن محاولات إعادتها دون جدوى ..

* * * *

ملحق اختياري لمن يهمه أمرهما أو يرغب في التطوع لرأب الصدع:

١ - اخذت زوجه الاولى داره الأولى كما قضى بذلك قانون الأحوال الشخصية المعدل بالقانون رقم كذا لسنة كذا - واحقاقا للحق كانت لها مبرراتها .. فها هي امرأة عاشت لسنوات تزيد عن العشرين مع رجل انجبت له وربّت الصبيان والبنات .. وها هو يدعو للبيت ضيفة تعيش بينهم مدة عشرة أيام متواصلة قبل أن تفاجأ بأنها هي نفسها الضُّرة التى خطفت بعلها وشاركتها فى شريك العمر ..

٢ - استشعر الأرق فقام فى منتصف الليل .. حدَّث أطيافا ولم يسمع جوابا .. توضأ . وصلى وما سكن القلب وما هجع الفؤاد وما ارتوى الحلق الجاف ، فلعن الدنيا وأصدقاء السوء وسب الزمان وما سمعت لعناته غير الحيطان .

٣ - عب من كل الأصناف والأشكال خمرا وغاب عن مجلته ومحافل الأدب وحانات الشعراء .. لكنه فى ليلة لا يذكرها قلب فى كتاب للنفُّرى فصحا ... وفى الصبح بحث عن كتب الحلاج وابن عربى والمتصوفة من متكلمين وشعراء وزنادقة وارتاح القلب عندما حدَّث نفسه بأنه توحد مع البررة وأهل الخطوة والجسارة ، فصلى تراويحه فى غير موعدها وسعى فى الأرض يتهدج .

٤ - خط على الأوراق سطورا ثم مزقها .. وعاود المحاولة .. خط سطورا موزونة بلا قافية وسربها لصديق عرف أوزان الشعر عن طريق البريد الجوى وجاءته الإجابة والنبوءه ..« ها أنت الآتى ياسين سين تكتب الشعر فى مطالع نصف قرنك الثانى وها أنت تُعَمَّد فاحمل صليب الشعر واتبعنى»

٥- ولأنه آمن بالعشق فى زمن يندر فيه العشق كان الديوان عشقا حلالا رغم كتابات الأوغاد من حملة الأقلام صدئة الأسنان ، مسمومة الأفكار نقدا يباع بالدينار والدرهم ، فى بلاد تدفع للنقد نقدا ، وتبخل على الشعراء وذوى الفطنة.

نهاية مفتوحة تشبة البدايات :

من يومها والبنت هناك وهو هنا .. والله يعلم إن كان من العدل أن تحمل اسمه إلى الابد وهى هناك، أو أن يملك مصيرها شرعا وهو هنا .. لكنها إجراءات وطبائع بشر يصعب على من يشغلون أنفسهم بكشف المستور أن يدركوا إلى أين تتجه النوايا ونحو أى بحر ستتزل المراكب الراسية على شاطىء البحيرة الآسنة ....



بغلة المواطن غالب المنصور

اغفروا لى تلك الجسارة التى أصابتنى وتملكّتنى ودفعتنى دفعا أن أبوح لكم ببعض ما جرى لى فى تلك الليلة الغريبة التى اختلط فيها كل شىء بكل شىء إلى درجة أربكتنى وأوعزت لى بأنى أتشكى من تلك المدينة التى كنت قد حسبتها صفت وراقت أو على الأقل خففت من كراهيتها لى بعد زمن طال لا زمتها خلاله ، أكابد منها وأقاوم وأحرص على قراءة الصحف ، حكايتى مع الصحف يطول شرحها ولعلّنى لوأسعفنى الوقت وطاوعتنى الألفاظ أحدثكم عن غرامى بتلك الأوراق التى اصفّرت بفعل الزمان ، هو عشق قديم على أى حال ، وأنا العاشق أحمى معشوقى وأحرص عليه حرص الشحيح الضنين ، لا أفرط فى قصاصة منه ، وفياً للوعد الذى قطعته على نفسى بنفسى كنت أقول لروحى وقد تزايدت الأوراق وزحفت إلى كل مكان :

★ حافظ عليها يا ولد فهى عصارة عقول نذرت نفسها لمن يعشقون الوطن ، وأنت عاشق للوطن ، من خلال أوراقها عشقته الى حدّ الذوبان، ولا بد أن أوراق الصحف اكتشفتك أولا ثم انتظمت فى المجىء كل صباح لم تخلف موعداً لتقلّب صفحاتها أو تستمتع برسومها وصورها الملونة أو التى كانت تبدو لك ملونة وتلك التى لم تكن ملونه على أى نحو ، وحالما كنت تقرأ السطور وأنت تهز رأسك ارتياحاً لأن إيمانك الراسخ كان يتأكد فى كل مرة بأنك لم تخطىء الاختيار ، كانت كل الأشياء من حولك تبدو واضحة جلية ، وليس هناك

فى الدينا أفضل من إيمان الرجل بعقيدة يزداد رسوخها أو وطن يغنى فى عشقه أو حتى فكرة أو حب متجرد لمعنى أو مثال أو قيمة ، فاهنأ يا ولد لأنك بفضل أوراق الصحف أحببت الوطن ، تاريخة القديم والمعاصر ، المكتوب وغير المكتوب ، المحسوس والملموس وما يتخفى بين السطور ، وكله، وكله بفضل أوراق الصحف التى تسعى اليك فى حقيقة الأمر أكثر من سعيك إليها ، دعك من تلك التفاصيل البلهاء عن كونك تشتريها وتدفع ، فالمسألة ليست مجرد حسابات تدفعها من حرٍّ مالك ، وأنت على سبيل المثال تدفع دائما ثمن كل شيء، مثلا مثلا ، أنت تدفع ثمن الوجبات المتكررة ، فول وجبن وفلافل وعدس ولحوم وأسماك وبامية وقرع ومخللات وسلطات، خضروات وبروتينات وفواكه وبقول لا حصرلها وكلها من خيرات الوطن ، لكنها ذهبت، كلها ذهبت . وبالسوء المآل.. فى المجارى ، ماذا تبقى لك من كل تلك الأحمال التى كنت تلفعها على صدرك وانت راجع من مكتبك وفى جيب سترتك جريدة الصباح؟ لا شيء . كنت تبلع وتملأ كرشك ثم تتمطى كقط شبعان ، تتثاءب وتنام ثم تصحو وتملأ كرشك مرة أخرى وتتمطى تتثاءب أو تذهب الى المرحاض، وكل شيء إلى زوال ، وما تبقى لك يوما غير الجوع ، مهما أكلت وهضمت أو عانيت التخمة ، كان الجوع يأتى قبل الوجبات وبين الوجبات، وكنت تحسه أحيانا أثناء الوجبات ، جوع

متواصل لاسبيل إلى الخلاص منه ، ولا بد أنك لم تحسب كم مرة فى اليوم شعرت بالجوع وكم مرة شعرت به فى الشهر والعام والعمر لوحسبتها لتهت فى الحساب، شبعك الحقيقى كان فى الأوراق ، وعليه فأنت مدين لتلك الأوراق التى احتفظت بها فى مسكنك ولم تفرط فيها أبداً ، هى كنزك وثروتك التى لا تقدر بثمن والتى يلزم أن تستمر فى حراستها وحمايتها من كل المخاطر ، كأنها وطن ، وطنك أنت على الأقل ، فأنت تسكنها بقدر ماتسكنك ، تعشقها بقدر ما تعشقك ووقتما تشاء تستعيد الزمان والأحداث وتسترجع الناس فيها وأنت الرجل الوحيد، لا خلفة ولا زوج وقد تخطيت السن» .

بمثل تلك العبارات كنت أتحدث إلى نفسى بصوت مسموع ، هى عادة قديمة على كل حال ، الحديث إلى النفس بصوت مسموع ، فطوال عمرى أتحدث إلى نفسى بهذه الكيفية ، فى السابق كنت أخفض من صوتى بحيث أسمعه وحدى ، الآن لم أعد أهتم ، ربما لأننى لست وحدى الذى يكلم نفسه بصوت مسموع ، أصبح لى شركاء وأكاد أعرفهم وأعرف الشوارع التى يستخدمونها وفى أى الأوقات يمكن أن ألتقى بهم ، أرقبهم ولا أتبادل معهم .أى حوار ، هم على كل حال نوع آخر من البشر ، نوع فاقد للسيطرة على تصرفاته اللائقة، مفلوت عيارهم كما يقال ، حالتى شىء مختلف، فطوال عمرى أكلِّم نفسى وبصوت ولدى الأسباب ، أنا رجل وحيد ، وحيد وحده

خالصة ، ومشغول بأمور خطيرة، صحيح أننى لست مفكراأو فيلسوفاً أو كاتباً فى صحيفة يبرع فى عرض الأفكار ومعكوس نفس الأفكار فى الشهر الواحد مرة واحدة على الأقل، لكننى قارىء لهم ، أترصد أقلامهم وأرسمها فى مخيلتى وهى مثل بندول الساعة أحيانا، أو الصواريخ الموجهة فى أحيان أخرى، ولكل واحد منهم فى ذاكرتى خانة ولست أدرى إن كان من حق المواطن الطيب أن يفعل مثل هذه الأفعال دون أن يلام على جرأته فى الحكم على حملة الأقلام؟ لكنه حدث ووجدتنى بسبب تلك الأكوام من الصحف مشدودا للحكم عليهم وأنتم تعرفون أن الناس لا تتساوى فى شىء ، فيهم الوضيع والمتواضع ، العظيم والمتعاظم، الذكى والمتذاكى، فيهم وفيهم ، السادة والنبلاء والصعاليك والعبيد، الأسافل والأرازل والمتسلقون والمتعففون، إننى أنزلق الآن الى بؤرة البوح قبل أوان البوح ، ويلزم أيها السادة أن أتراجع قليلا ما دمنا قد حدَّدنا سلفاً أن تلك الليلة الغريبة التى اختلط فيها كل شىء بكل شىءكانت هى البداية ، ولا حق لى أن أتخطاها لأحدثكم عما جرى بعدها وما استكشفته تباعا من أمور السادة الذين كنت أكن لهم كل توقير وإجلال ، كنت أقدس أسماءهم وأرددها بحماس المؤمن بكل ما يطرحونه من أفكار حتى حدث ما حدث، وخرجت غير آسف من دائرة الانبهار والتبعية المطلقة إلى منطقة الشك والرغبة فى المراجعة ، مراجعة الأفكار والآراء والأساليب والمصائر والورق أسّ البلاوى، المعشوق الذى يضعك فى مواجهة نفسك وربما أيضا فى

مواجهة العالم بأسره، هو الورق المكتوب بالصدق أو بالزيف ، الورق القادر على إيقاظك وقت اللزوم ، والقادر أيضا على تنويمك أو عزلك عن كل مـــا يدور حـــولك فى هذه الدينا وأنت واهـم أنك فى بؤرة الأحداث ، شىء مثل هذا حدث لى ويلزم أن أحدثكم عنه، أحدثكم بالتحديد عن صراصير الورق ، هناك فى الدنيا صراصير خاصة بالورق .

***

عيبى ومنذ البدايات القديمة أننى نُّوام ، نوَّام بطبعى ، وربما توافق ذلك مع مـا جرى مـؤخراً ، فـجـأة ودون مـقـدمـات تكتـشف الأسباب التى أو صلتك إلى ماوصلت إليه، الخطير أن يحدث ذلك بعد فوات الأوان ، كان المرحوم أبى من دعاة الصحو المبكر ، وكان يقول لى فى كل مساء إن للصحو المبكر ، سبع فوائد ، والحقيقة أن الرجل كان يقولها لوجه الله الكريم ولا أستجيب ، كان يستيقظ قبل الفجر بساعة أو أكثر ، يتوضأ ويقرأ القرآن فى القاعة ، ثم يذهب الى الزاوية ليؤذن للناس ، يذكرهم فى كل مرة بأن الصلاة خير من النوم ، وكان الناس يستجيبون ويأتون وكان هو يباهى بذلك ، ويتلقى كراهية الشيخ الضرير ذى الصوت الأجش الذى يعظ الناس فى خطبة الجمعة ، يبدو أن الضرير كان يعاير أبى بسبب غيابى عن صلاة الفجر، يعايره مستشهدابابنه الذى فى مثل عمرى والذى كان يقوده لتأدية فريضة الصلاة فى كل فجر، وأحسب أن أبى حاول معى بكل الوسائل ، بالكلام الطيب والتوبيخ والضرب والحرمان من الأكل ، لكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل، ويبدو أن فشله معى ولدٌ فى

قلبه حسرة كبيرة، وبانت على تقاطيعه الأحزان والتجاعيد ، وكلما كبرت تزايد الكدر على ملامحه وكان يقول بأسى.

- خيبت أملى فيك يا بغل .

ويضيف

- عليه العوض ومنه العوض فيك.

ولأننى كنت وحيده فقد ظل يحاول ويحاول، وفى الدنيا ناس لهم أدمغة مثل أدمغة البغال أو الحمير الحصاوى ، هؤلاء الناس البسطاء يعجزون عن الاستجابة لأطنان النصائح، وليس فى الأمر رغبة فى العناد أو العصيان ، ربما العكس هو الصحيح على طول الخط، عندهم رغبة فى الطاعة مع استحالة تحقيقها، لقد تبدّى لى فى لحظة كشف نادرة أننى كنت فى ذلك الزمن مجرد بغل أو حمار حصاوى عاجز عن تأدية طقس الصحو المبكر ليرتاح أبى ويهدأ، يرد كيد العدو ، لكن الأمر لم يكن بتلك البساطة، كان لابد للبغل أن يتخطى الحاجز المستحيل، وكان من المستحيل أن يفعل، وكل بغل فى هذه الدنيا مزوَّد بجهاز الطاعة العمياء والاحتمال ، راضيا ووديعا تركبه وتضربه وتنخسه ولا يكل أو يمل ، لكن البغل ليس حصانا أو حماراً، البغل فانٍ مثل أى كيان فانٍ فى هذه الدينا الظالم أهلها، يدرك البغل تلك الحقيقة البسيطة ويتعامل على أساسها، لقد جاء إلى الدنيا بفعل الصدفة المدبرة عندما التقى حصان وأتان أو فرس وحمار فى لحظة شبق ضد قانون النوعين ليطلع الهجين الفانى بعد عمر يطول أو يقصر لكنه يعرف تلك الحقيقة البسيطة رغم كونه بغلا، تستعين به وتشقيه وتأخذ حصيلة جهده العمر كله ،

سخرة بكماء لقاء حبات من الفول وحفنات من التبن، وعندك الكرباج تسوطه إذا تباطأ أو بدا لك أنه تباطأ، وتصدق تلك الفرّية الشائعة بأنه لا يحس وأنه لايتألم صدقونى ياسادة إن بغال العالم ، كل بغال العالم تتألم ، وتتوجع وتكتم الوجع، هى كائنات تعسة سقطت فى أيديكم لتخدمكم ثم تفنى وقد سلبت منها كل حقوقها حتى حقها فى أن تتكاثر وتتوالد شأن كل كائن حى يحافظ على نوعه مثلما تفعل بحرية أحط أنواع الحشرات، وأى منصف لابد أن يدافع عن تلك البغال التعسة ، أذكر تلك البغلة التى كانت فى دارنا، نباهى بهاونشغلها الوقت كله وهى تطاوع حتى أصابها ماأصابها، سقطت ذات مساء وعجزت عن القيام ، رأيتهم وهم يرفعونها بقسوة من وسط الدار ، يحملونها فوق عربة يجرها حصان ويذهبون بها إلى جسر المصرف ، يدحرجونها وينفضون أياديهم ، كانت الشمس تسقط على عينيها المفتوحتين فى ظهيرة ذلك اليوم من بؤونة، جلسنا ننتظر تحت ظلّ شجرة التوت ، وعندما وصل كامل « الدباغ»تحدث مع أبى إن كانت البغلة فيها الروح مازالت ؟ فأشار اليه ليرى بنفسه، كان كامل الدباغ يبدو متعجلا، أطل على البغلة وعادثم جلس، هز رأسه وهو يشرب كوب الشاى واقترح :

– نخلصٌ عليها، فكر أبى، ربما صعب عليه حالها، استمهله وأوصاه بعدم سلخ الجلد ما دامت تتحرك، لكن كامل لم يكن على استعداد لمزيد من الانتظار، استخدم حجراً مركونا فى ضرب البغلة فوق أم رأسها والبغلة ترفس الهواء فيعاود أخذه وضربها بعزم أكثر ، ولابد أنها كانت تتوجّع والدم ينزف وكامل الدباغ غارق فى عرقه،

لكنه اطمـأن عندما وجدها تنتفض عدة انتفاضـات، قـيدٌ سيقـانها مفتوحة بالحبل وكانت قد كفتْ عن تحريكهما ، وبدأ يسلخ جلدها من منطقة البطن ، لم ينشـغل بقطرات الدم التى تلوّث خنصره وكف يده التى تسلخ، وسـحبنى أبى لأجلس تحت ظل التـوتة حتى لا أصـاب بضـربة شـمس، ولم يطل الوقت أو ربمـا طال ولم أشـعـر إلا وأبى يهزّنى وأفتح عينى لأرى جلد البغلة على كتف الدباغ ، نظرت إليها وبدا لى أنها كانت تتنفس والشمس تنعكس على العينين اللامعتين المفتوحتين تتشكيان بلا دموع من عرى لحمها الذى تكاثرت عليه أسراب الذباب.

* * * *

- اصحى يا بغل

قالها أبى فلم أطاوعه ، تذكّرت البغلة، ربما على غير وعى قررت أن أعاند وأستمر فى النوم ، لكنه بعد ما عاد من الصـلاة صحّانى فلبست ثيابى وذهبت إلى المدرسة فى البندر ، كان طابور الصباح قد تحرك فى اتجاة الفصول ، وكان مدرس الألعاب عند الباب يحتجز المتأخرين أمثالى، طوّح عصاه وأصدر حكمه:

- إفرد ايدك يا بغل.

أعادت العبارة بغلتنا المسلوخة إلى الذاكرة ، حزنت من أجلها وهان على الوجع ، أربع ضـربات بالعصـا، على كل كفٌ ضـربتـين ، وربما من بعدها أصبح من المألوف أن أصل بعد أن يتحرك طابور الصباح ، وبآلية أفتح راحتّى وأتلقى الضربات وصفة البغل ، وفى كل مرة أحس بالوجع أتذكر كامل الدباغ - ولا أدرى لماذا لحظة أن

كانت كفه ملوثة بالدم ، كنت أكرهه وأكره نفسى لأننى من نفس العائلة الصغيرة ، كنت على وجه التحديد أكره اسمى - غالب الدبّاغ - لكننى أبداً لم أجرؤ على البوح بتلك الكراهية لأحد ولست أدرى أى نوع من العلاقة بين كراهية الاسم وتلك الرغبة فى الصحو المتأخر ، كانت نصائح أبى تتوالى لكى أصحو مبكراً كما كان يحدث فى السابق ، وكان يحاول قدر جهده وأعاند ، يهزنى بعنف ولا أقوم ، اتمنى فى بعض الأحيان أن ينهد سقف القاعة على رؤوسنا لكى أخلص من محاولاته لإ يقاظى ، ومرة بدا لى أن الحل ممكن إذا قمت وسكبت على رأسى زجاجة « الجاز» ثم أشعلت النار ، هل فكرت أو اندفعت بغير إرادة منى لأفعل ما بدا لى أنه الحل ؟ سكبت « الجاز» وأشعلت عود الثقاب ثم قرّبته من طرف جلبابى ، لعلّنى كنت بين النوم واليقظة ، ولعلنى قلت كلاما عن رغبتى فى أن أرتاح واريحهم منِّى ، قالوا أننى قلت ، فلابد أننى أكون قد قلت، هل كان الصهد يحوطنى ويشملنى لأننى اشتعلت بالفعل ؟ وهل أفقت من غفوتى الصاحية أو صحوى الغافى وقد انطفات؟ ومن ذلك الأب الذى أطفأنى فلا احترقت ولا ارتحت؟ يصعب على الآن أن أذكر التفاصيل ، لكننى من يومها صرت فى الدار بغلا رسميا ، عنيدا إلى الحد الذى أوصل أبى إلى حالة من اليأس الكامل أو التسليم بالواقع الجديد ، ولعلنى كنت الاحظ التجاعيد وهى تزحف إلى ملامحه، وربما لم أصدق دعواه المتكررة بأن الهم سكن قلبه وأن خيبة رجائه فى إصلاحى سوف تقضى على ما تبقّى من عمره ، لم أصدقه حتى مات بالفعل فصدقت ، أو رثنى دارا قديمة من الطوب اللبن وإشاعة ردّدها

ناس الكفر بأننى قتلته، استشهدوا بشكاياته منى وآمنوا بأننى قضيت عليه قبل الأوان ، كان الواعظ الضرير الذى كرهه يعلن لهم فى صلاة الجمعة أن فى الكفر ابن عاق ويلزم إخراجه من زمامه ، وكان من العسير على صبى فى الخامسة عشرة أن يحسن الدفاع عن نفسه ويذكّرهم بأن لكل أجل كتاب وفى كفرنا وكل كفور الدنيا من له ظهر لا ينضرب على بطنه ، ظهرى وسندى راح يا سادة فمن كان لى يحمينى ويدافع عنى وأسرتنا بضعة دبأغين جوالين من كفر إلى كفر ومن بندر إلى مركز ؟ كامل الدباغ فات الكفر وهجّ إلى أرض البرارى يبحث عن جحش أو حمار ميت يسلخ جلده ويدبغه ، ولا بد أنه ليس هناك فى الدنيا أقسى من خروج صبى رغم إرادته من كفر عاش فيه زمنا بتهمة زائفة لا يملك نفيها ، ولم يكن فى الأمر اكثر من عجز عن الدفاع أو إثبات العكس .

* * * *

مشكلة المشاكل بدأت بصرصار ، مجرد صرصار حر يتجول فى هدأه الليل كما يحلو له ، ولقد عشت عمرى الذى طال دون أن تكون هناك أدنى علاقة بينى وبين تلك الكائنات ، مالى بالصراصير؟ علاقتى بها هامشية الى أبعد حد ، أو هكذا كانت حتى حدث ما حدث فى تلك الأمسية عندما شعرت بحركته أولا وهو يزحف على جسدى الراقد.. فى استكانة ، ولا بد أننى أزحته عنى وعاد اكثر من مره إلى حد القلق ، قمت وأضأت مصباح الحجرة لأراه ، صرصار أصفر يتجول فى المكان ، ليتنى قتلته لأ خلص منه وأعاود النوم ، لكننى لم أفعل ، جلست أتأمله وهو يفرُّ ويختبىء بين حزمة من أوراق

الصحف ، ثم يمد قرون استشعاره ويتبعها خارجا برأسه أولا، وعند أول حركة ولو كانت هزيلة يعاود الاختباء قلت لنفسى أنت يا ولد قارىء صحف ، ضيعت عمرك فى قراءة الصحف والا حتفاظ بها ، هى كنزك الذى لا يقدر بثمن ، فلو عرفت الصراصير طريقها إليها لفسد كل شىء وراح تعبك هدراً ، تأمل الصرصار وتأكد من أنه واحد ضلَّ طريقه إلى المكان، وعند ما تطمئن يحق لك أن تنام ، ولعلها كانت المرة الوحيدة التى أقوم فيها من غفلتى واستشعر القلق، أجرب الأرق الذى سمعت عنه دون أن أعايشه تجولت فى كل الأركان لأطمئن على كنزى المربوط فى حزمات من أوراق الصحف، أربعون عاما أو تزيد وأنا حريص على أوراقها ، ومنذ أول صحيفة اشتريتها لم أفرِّط فى ورقه منها، احتفظت بها ، كانت غرامى وعشقى ، فيها أرانى شابا حالما مكتوباً اسمه ضمن من نجحوا فى الشهادة الابتدائية، وفيها أقرأ كل شىء عن الوفد والنحاس وكتابات عن الشباب الذين خرجوا فى مظاهرات وهتفوا « الجلاء بالدماء» وكتابات عن الاستعمار قبل أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل وبعدها ، وعن القناة التى تأممتْ والسدّ الذى انبنى ومقبرة الغزاة ، فيها إعلانات عن الحديد والصلب والوحدة والانفصال والنكسة والعبور والصلح والانفتاح والمنصة ومحادثات طابا واكتمال النصر ، وفيها مبالغات عن مليارات تم تهريبها إلى الخارج وديون وشركات استثمار ، جرائم وبطولات وحماقات ومحاكمات وكتابات وبلاهات، ثروة طائلة تساوى أعمار من عاشوا ومن رحلوا ، ثروة لا يقدرها حق قدرها غير قديس أو راهب نذر نفسه للحفاظ على كل قصاصة فيها ،

وهاهو الصرصار يأتى .. قلت : اشترى عبوة المبيد الحشرى التى تقضى على الصرصار ، وعندما طلع النهار خرجت ، اشتريت العلبة واستخدمتها بإسراف حتى فرغت تماما، لعلنى شعرت بنوع من الارتياح ، ارتياح من يؤدى واجبه بدقة ويحق له أن ينام .

فى الليلة التالية حدث الشيء نفسه ، تحرك الصرصار فوق بدنى المهدود فقمت ، ورأيته، نفس الصرصار الأصفر وهو يكرُّ ويفِّر ، يتوارى بنشاط مدهش بين أوراق الصحف ويتلصصُّ بقرنى استشعاره ثم يختبيء ، كأنه يلاعبنى ويكيدنى ويسخر من عبوة المبيد التى أفرغتها فى الصباح الباكر ، المهم أننى وللمرة الثانية سهرت بالقلق والأرق والخوف على كنزى المرصوص فى كل أركان المكان ، قلت لنفسى أغيِّر الصنف ، غيرته وأفرغت العبوة عن آخرها وانتظرت المساء ، وفى المساء داهمنى الصرصار نفس الصرصار وقد ازداد جرأة إلى حدْ أنه كان يتمشى على رأسى وعنقى ، أدفعه بعيدا عنى فيبتعد ثم يعود بجسارة إرهابى متمرِّس على الاقلاق وتغيير الدم ، أقولها لكم بكل الصدق ياسادة ، غيِّرت الصنف مرات ومرات ، يمكن أن أؤكد لكم أننى جرْبت كل الأصناف بلا فائدة ، المفزع ، المفزع بحق أن الصرصار تكاثر، أصبح جيشا من الصراصير جاهزة للهجوم وبثٌ الرعب فى القلب ، كنت أطاردها بنعال الأحذية والشباشب ، أقتل الواحد منها فيظهر بدلا منه العشرات ، المئات ، صراصير فى الأركان فوق أوراق الكنز الذى احتفظت به وعلى الفراش الذى استخدمه للرقاد، فى المطبخ بين أكياس الخزين وفى الثلاجة داخل علب الجبن وفوق حبات الفاكهة

وأكياس اللحم المتجمد ، صار الأمر همّاً يصعب الخلاص منه، وتداخل الزمان ، الصبح والظهيرة وقلب الليل وما قبل الفجر وبعد الفجر، صرت لا أملك أن أميز الوقت أو أعرف الفارق بين الضوء والعتمة ، تداخل الصحو مع الرقاد القلق، وعزّ عليّ النوم وما عدت قادراً على أن أفصل بين ما هو حقيقى أواجهه فى صحوى وما هو كابوس أتعذب بالوقوع فى أسره، والكنز الذى امتلكته بشق الأنفس وكنت أحسبه باقياً وخالدا وأرتب نفسى لإعلان رغبتى فى التبرع به لإحدى المكتبات العامة، والضجيج الإعلامى الذى سوف يدور حول الرجل الذى احتفظ بكل ورقة ليفيد منها شباب الباحثين عن الحقيقة ، نفس هذا الكنز يتحول إلى نفايات من أوراق ممزقة أو متآكلة الأطراف أو منحوته من الداخل بأسنان وحش شره ، أكوام وأكوام من جزئيات الورق المفروم تتطاير وتسكن فى الأركان ، ومهماكنست ونظفت وملأت سلال المهملات أجد المزيد والمزيد ، وكأننى كنت نحلة تدور حول نفسها وقد أصابتها عشرات الضربات فلا هى ماتت ولا بقى لها رجاء فى البقاء ، كنت أرتمى فى أى مكان من كثرة الإنهاك وأرى جيوش الصراصير تزحف ، من رأسى وعنقى وكل بدنى مرتعا أو محطات استراحة وتصدر عن حركتها أصوات ، كانت تصدر عن تلك الصراصير بعض الأصوات، ولقد بدالى مرة أنها توبخنى قائلة :

– اصحى يا بغل .

تذكرت البغل القديم ورقدته العاجزة عند جسر المصرف وقد سلخ قريبنا جلده، لا أبالغ إن قلت لكم إن العبارة تكررت وطنت فى أذنى

أكثر من مرة حتى بدا لى أن الصراصير آكلة الورق تتكلم ، كنت أسمعها وهى تتهددنى وتتوعدنى بسلخ جلدى مادمت قد صرت بغلا بحساباتها هى أيضا ، فكرت فى الدار التى كنت قد ورثتها فى الزمن القديم ، قلت ألجأ إليها وأسكنها فرارا من مطاردات تلك الجيوش من صراصير الورق الضارية ، فلعل الشيخ الضرير الذى أخرجنى من الكفر مات أو رحل ، ولعل الجيران لم يأخذوها كل بحسب قدرته على الاغتصاب بوضع اليد ، ولعل الهوام والجرزان لم تشغل كل أركانها، كان على أن اختار لنفسى اسماً أخر - غالب المنصور- بديلا عن ذلك الاسم الذى ورثته مع الدار القديمة ، وبدا لى أننى مازلت قادرا على الاختيار بين البغلنة عل وزن البلقنة ، بمعنى أن أقبل معاملتى هناك على أساس أننى بحسب ما سمّانى أبى مجرد بغل ، أو أن أبقى فى تلك المدينة وأبحث فى جنباتها عن مركبٍ جديد من مواد قادرة على مساعدتى فى صراعى المرير مع تلك الصراصير اللعينة ، فلعلنى أتمكن وأنا فى هذه السن منها وأقدر على إبعاد خطرها عنى ، ويبدو أننى أصبحت عاجزاً عن الكتمان ، وجاهزا لمزيد من البوح بما كان وأملا فى الخلاص فهل تجاوزت حدودى لأطلب منكم الغفران ؟

مجلة ابداع يونيو ٩١

ضرب المواطن فاضل التلاوى

(١)

بدأ نهارا مزحوما بمشاريع المشاوير ، قاوم الصهد وقطرات العرق الزاحف على بدنه والمتزايد على جبهته، لعله لم يشعر بمدى الإرهاق الذى كان قد وصل إليه لأنه كان يبدو مبسوطا من نفسه إلى حد الغبطة ، كانت ملامحه تعكس وجها متألق المشاعر مستبشرا خيرا، ووسط الجموع كان يتحرك برشاقة طائر صغير، كان يقول لنفسه.. إننى رجل مرموق بلاشك ، ستكون رسالتى موضوع اهتمام خاص ، سوف أكون رائعا يوم المناقشة ، الأستاذ المشرف لم يخف حماسه الزائد للموضوع ، سأكون بعدها أصغر دكتور فى هيئة التدريس .

كان المواطن فاضل التلاوى كثير الانشغال فى ذلك اليوم ، كان قد سجل الرسالة واطمأن قلبه ، كان يسرع الخطى ليحصل على مرجع جديد من مكتبة الجامعة الأمريكية ، بعدها يعود لإلقاء محاضرته ويفرغ من الشغل ، رفع عدسات منظاره ومسح عينيه بمنديله من أثر العرق ، أعاد المنظار فاتضحت صور الأشياء الى الدرجة التى تجعله قادراً على تحاشيها وعدم الاصطدام بها ، وهو عادة لا يلتفت إلى ما حوله بأكثر من النظرة العابرة ، قال لنفسه: « لقد اخترت طريقى وسوف أهب حياتى للبحوث الجادة دون تعصب لفكرة أو لعقيدة أو لطبقة، يكفينى أن أقوم بعرض النظريات بحياد العالم فلا حماس لليمين أو لليسار» ويوم مناقشة رسالته الأولى

ضايقه استاذ متعصب ، دس أنفه فى أمور لم تكن تخصه،سأله سؤالا غريبا و ارتبك كيف يجيب لكنه أفلت من الموقف عندما قال :

– موقفى هو عرض المواقف ، إننى باحث متواضع وليس لى فكر يخصنى.

يحاصرونه فى هيئة التدريس ، يحرصون على التأكد من انتمائه الذى يهمهم أكثر من أبحاثه ، يقول لهم كل مرة: « أنا إنسان متوسط ، متوسط الذكاء ، متوسط الحال ، ومن أسرة متوسطة وليس لى أدنى اهتمام بما تحاولون جذبى إليه».

تحير كثيرا فى اختيار رسالته ، بالتحديد موضوعهاوعنوانها ، جاهد أن يكون العنوان سهلا وغير مرتبط بأى فكر أو قضية ، أعجبه تماما أن يجعله « العنف كظاهرة – دراسه مقارنه بين المجتمعات الصناعية وغير الصناعية » لعله ارتاح بعدها أنه حرص تماما على تأكيد حياده التام وهو ما حرص عليه تماما، ولعل هذاهو سر اغتباطه الحقيقى فى صباح هذا اليوم وكأنما انشال عنه عبء كان ينوء بحمله.

(٢)

كان المواطن فاضل التلاوى وسط الميدان ، فجأة اكتشف أنه وسط الميدان ، فتح عينيه فأدرك أنه وسط ميدان التحرير، بالتحديد أسفل الكوبرى العلوى المخصص للمشاه، كانت الجموع تصعد درجات السلم فى آلية وكان هو لأسباب يجهلها تماما غير راغب فى صعود الدرجات ، كان فى داخله شيطان لعين يوسوس له ويحرضه

على كسر القاعدة التى اعتادها والتزم بها منذ انتصب ذلك الكوبرى العظيم البناء وفرض عليه وعلى غيره صعوده وهبوطه كل صباح كوجود حقيقى لا يصح تجاهله ، وحيث أنه لم يكن وحده غير الراغب فى عدم الصعود فقد انساق وسط مجموعة صغيرة من الناس ربما كان أكثرهم من ذوى الميول غير المألوفه والذين اعتادوا على تجاهل الأنظمة لأسباب متباينة من بينها الاستخفاف أو التكاسل أو مجرد عدم الرغبة فى الصعود ، لعل بعضهم كان من ذوى العاهات أو المرضى ، المهم أنه اندس وسطهم وبدأ مشوار العبور ، كان عسكرى المرور المنوط به جعل القانون مصونا يقوم بعمله المعتاد ، لكن تقاطيع وجهه لم تكن منبسطه ربما لأنه كان راغبا فى التدخين ومتخوفا من ذلك فى نفس الوقت بسبب مرور أحد الضباط عليهم وتواجده فى ذات الميدان ، كان يقوم بعمله فى آلية وبشىء من عدم الحماس ، ولقد حدث أن عبرت مجاميع صغيرة من الخلق دون أن يتحمس لسؤالها عن عدم استخدامها الكوبرى وإعادتها مرة أخرى ، وتلك أمور يقوم بها فى العادة ببراعة وكفاءة مشهود له بهما .

كان المواطن فاضل التلاوى وسط مجموعة من الخلق تنوى العبور ، عندما توقفت السيارات زحف الجمع ، زحف فى إثره متخلفا خطوه أو خطوتان ، لعله كان يبدو متهيبا بعض الشىء وغائبا عن نفسه بصورة جعلت العسكرى يلتفت إليه ، أشار العسكرى الى فوج كان قد بدأ العبور لكن دون جدية . شىء من قبيل أداء الواجب دون أن يبدو عليه أنه مصر على تنفيذه، لكن المواطن فاضل كان فى

منتصف المسافة زحف بخطواته ، لعله لم يسمع صوت العسكرى أو سمعه وقال لنفسه « إنه لا يحدثنى أنا » ، كانت فى جيب قميصه علبة سجائر« سوبر» وعلم الله لماذا انحطت عليها عينا العسكرى، قال العسكرى لنفسه «إنه يستغفلنى، سمع صراخى ويتجاهلنى وسوف أجعله يعود ولن أسمح له باكمال مشواره» كان الجمع الذى فى أعقاب المواطن فاضل التلاوى قد شرع فى إكمال مشواره إلى الجانب الآخر ، لكن العسكرى أتجه إلى من حسب أنه يتجاهله واعترض طريقه وأشار إلى الكوبرى ، نظر إلى نفسه وإلى فلول المتسللين قبله وبعده وعجب للأمر ، تسمر مكانه وحدق فى وجه العسكرى مستفهما أومستنكرا ، لكن العسكرى أعاد حركة الإشارة إلى الكوبرى الذى بدا بعيدا وصعب الصعود ، كان العسكرى قد ركب دماغه تماما وهو يقول لنفسه « انه شاب مكتمل الصحة وليست به عاهة ظاهرة ، فليطلع الكوبرى مثل خلق الله أم أنه يحسب أن على رأسه ريشة ؟» كانت المسافة الباقية مجرد خطوات لكن إصرار العسكرى باعادة المواطن فاضل التلاوى الذى كان يقف بشكل حسبه الأخير استفزازا ، بل أنه مديده وسحبه من كوعه إلى منتصف المسافة بعيدا عن طريق السيارات ، طلب منه العودة الى الكوبرى أو يقوم بتحرير محضر له ، قال المواطن فاضل لنفسه « انهم يعبرون الشارع ولا يحرر لهم محاضر فلماذا اختارنى ليهددنى ؟» أشار إلى من عبروا وجاهد أن يوضح للعسكرى انه من غير المعقول أن يمنعه ويترك غيره يعبر لكن الأخر قال لنفسه « انه أفندى مناكف وطويل

اللسـان، كأنه الوحيد المفتح وبقية الخلق عميان ، لن أجعله يمر في هذا النهارالأسود على دماغه» .

كان فاضل الهادىء المتزن قد انفعل وأحس بالغيظ من سلوك العسكرى ، كان ينظر للأمر على أنه استبداد غير عادل ولا مبرر ، تبادل مع العسكرى نظرتين عدو انيتن قبل أن يتبادلا حواراً متحمسا جاهد كل منهما أن يكون مهذبا وفى حدود الأدب ، صحيح أن العسكرى كان يشعر أنه من الخطأ أن يستمر مع هذا الافندى المناكف وصحيح أن فاضل لم يكن يملك وقتا ليضيعه ، لكنه خلافاً لكل منطق ابتدأ الحوار واستمر وتمسك كل واحد منهما بحقه فى الدفاع عن وجهة نظره ونسى نفسه تماما ، هكذا ولمجرد صدفه بحته غير مدبرة التقت شخصيتان لم يسبق أن انتبه أحدهما للآخر من قبل واختلفا وأصرا على الاستمرار فى صراع خفى يتوارى خلف عبارات تقليدية وعادة بلا قيمه:

« ارجع ياحضرة – لن أرجع – قلت لك ارجع – لن أرجع– ارجع أحسن لك – رجع الآخرين – ساكتب لك محضرا– اكتب وسوف ترى – سأجرك بالقوة– احترم نفسك ياعسكرى– عيب يا أفندى– – انت لا تعرف اصول شغلك – مالك أنت بشغلى ياجدع –سوف أعبر – لن تعبر– أنت لا تعرف مع من تتكلم – مع من ؟– سوف ترى– انت تهددنى يا أفندى ؟ – هل أنت كبير ؟– لو كنت حسن التربية لا حترمت النظام – أنت لسانك طويل– أنت قليل الذوق – أنا؟ ».

كان الحوار ممطوطا ولا يبدو أنه سوف يقف عند حد ، ولأنه كان

ممطوطا فقد حدث ارتباك فى حركة المرور ، جاء مساعد المرور من الناحية الأخرى فتنبَّه العسكرى الى أنه ارتكب غلطة لا تصح ، شد المواطن فاضل التلاوى من كوعه وزحزحه عن مكانه بالقوة ، عادودفعه فكاد أن يوقعه على الأرض لولا أن استند الى الحاجز الحديدى، تضايق فاضل من ذلك الاسلوب الوحشى وقال من بين أسنانه:

- حاسب ياحيوان.

كان العسكرى يثق تماما أنه ليس بحيوان ، وكان وجود المساعد قد جعله يشعر بنوع من الحماية والرغبة فى تأكيد وجوده وقدرته على أداء عمله ولأنه أحس بالاهانة أيضا على نحو يصعب احتماله دفع المواطن أمامه وهو يصرخ :

- اخرس يا ... (قال لفظة نابية خارجة عن كل حدود الأدب).

كان المواطن فاضل التلاوى يعرف أن تلك اللفظة التى وصفه بها العسكرى تعتبر قذفا علنياً تستوجب المساءلة القانونية وتستحق العقاب فالعالم كما يراه ليس فوضى دائما هو محكوم بقانون ، كان اللفظ البشع قد قيل على مسمع من خلق الله ، لكنه أراد أن يطمئن نفسه قبل أن يخاطب الشهود ، سأل العسكرى ولعلها كانت فرصته الأخيرة للتراجع ، قال فاضل كأنه لم يسمع :

- ... ماذا قلت ؟

وربما لو تراجع العسكرى وأعرب عن أسفه أو حتى سكت لهان الأمر وانفض النزاع لكن العسكرى كرر نفس اللفظ الجارح مؤكدا إصراره على الخطأ ومضيفا اليه أيضا:

- ... وابن زانية .

كانت الإهانه هذه المرة لا تخص المواطن فاضل التلاوى وحده أصبح الأمر أكثر تعقيدا فها هي كرامة أمه تداس وسط شهود، قال فاضل لمن حسبهم يهتمون بالأمر بما فى ذلك مساعد المرور :

- شاهدين ؟

اقترب منه المساعد أكثر وحاول أن يصرفه بالحسنى وينهى النزاع - يا سيدى لا تغضب ، هون عليك ، أنت رجل متعلم فلا تعطلنا:لو أن المساعد اعتذر لهان الأمر نسبيا ، لكن الاسلوب لم يعجبه، كان من الواجب مثلا أن يلوم العسكرى أو يؤنبه، لكنه لم يفعل ، نظر فاضل إلى المساعد بتحفز وغيظ وقال:

- انت متواطىء معه، أنتم تعلمون العساكر قلة الأدب .

سكت المساعد ولم يشأ أن يرد ، انصرف إلى شىء ما فى الميدان، وكأنما اعتبرها فاضل إهانة اخرى تضاف إلى مجموعة الإهانات التى تعرض لها ، خطا فاضل خطوات مربوكة بين الجمع الواقف والعسكرى والمساعد وهو يصرخ :

- أنتم شاهدون على ما جرى ، سوف أطلبكم للشهادة ، أمثالكم أيها العسكرى لا بد ان ينالوا عقابهم ، سوف ترى أنت أيضا أيها المساعد ».

كان المواطن فاضل التلاوى يبدو كقط جريح لا يكف عن الحركة أو الصراخ والتهديد وكان المثلث المكون منه ومن المساعد والعسكرى يبدو عاجزا عن حسم النزاع لأى الأطراف.

(٣)

على غير توقع ظهر رجل فى حوالى الخمسين من عمره، كانما انشقت عنه الأرض فانزرع وسط المثلث الذى يتحاور ، كان عوده ممتلئا وعيناه تتخفيان خلف منظار شمسى قاتم العدسات ، كانت ملامحه صارمه وكلماته قاطعه لا تسمح للسامع بغير التسليم بما يطلب ، قال للمساعد :

– اتركه لى.

خطا خطوتين فى اتجاه فاضل، شال يمينه وهوى بهاعلى صدغه فاحدث رنينا ملفتا للأسماع والأنظار ، طار الشرر من عينى فاضل وطار منظاره الطبى الى مكان ما، وطار أيضا صوابه ووعيه ، لم يسمع حتى ألفاظ السباب الجارح المهين الموجه له ، ولا رأى الوجه الذى يخطو ناحيته بثبات ، نزلت قبضة الرجل محكمة على فكه الأيسر فترنح ، بعدها توالت الضربات والركلات مدعومة بسباب داعر غير هياب من فم الرجل ، سقط فاضل عجزا عن احتمال المزيد لكن الرجل تابع ضربه وركله بالأقدام رغم أن الجسد كان قد استكان وعجز عن دفع الأذى وراح ينتفض فى آلية كلما طالته ركلة جديدة ، أما العقل فكان مغيبا ومحصورا فى بؤرة ضيقة كأ نها كابوس بلامنفذ لايود أن ينزاح .

ومن باب الرحمه اقترب البعض من الرجل فى محاولة لتهدئته ومنعه من تدمير فاضل التلاوى، لكن الرجل التفت الى الناس وجذب أقربهم الى يده بشكل عفوى لا اختيار فيه وكان شابا أسمر الوجه ،

جذبه من طوق قميصه، لم يفلح الشاب فى تخليص نفسه فقد عاجله الرجل بضربة مفاجئة متهماً إياه بافساد النظام، نزف الدم من وجه الشاب والرجل يضرب ويتوعد من يقترب فتراجع الجمع ، كان الرجل يضرب باقتدار وخبرة ، ضربات مدربة وقادرة على شل حركة الخصم الذى فرضت عليه معركة لم يحسب لها حساب ، وبعد لحظات تحول الشاب الأسمر إلى شىء آخر ، شىء جريح مهان عاجز عن النطق دفاعاً عن نفسه مستجيرا بنظراته بمجموعة من الخلق انشلّت قدرتهم على التفكير أو التفسير . كان الرجل يضرب الخلق أيضا بنظراته وكلماته ، كانت نظرته العدوانية مسنودة الى شىء خفى يطمئن هو إليه ويخوف به الناس فى ذات الوقت ، كانت اللحظات تمر وسلاح الرجل يحسم الامر لصالحه من كافه الوجوه، وكما دخل المعركة بشكل غامض ترك الميدان أيضا بخفة وسرعة وعلى غير توقع ، انسل من وسط الخلق قبل أن يدع لهم فرصة السئوال حتى عن هويته ، حتى العسكرى والمساعد بدالهما الأمر غريباً لأنه اختفى وخلّف فى دائرة اختصاصهما جريحين وهو أمر يعجزان عن التصرف فيه ، وعندما جاءت عربة الاسعاف وحملتهما ، ذكرافى أقوالهما أنهما لا يعرفان الرجل ، تماما كما قال المساعد والعسكرى وهكذا قيد الحادث ضد مجهول وهو أمر مألوف عند محررى محاضر الضرب عندما يجهل المضروب هوية الضارب.

(٤)

تعب المواطن فاضل التلاوى كثيرا وأتعب معه الاستاذ المشرف

على رسالته بسبب إصراره على تغيير عنوان الرسالة ليصبح« نظريه العنف فى المجتمعات النامية » ولقد بدا غريبا على هيئة التدريس ذلك التغير المفاجىء فى آراء فاضل ، وبدا غريبا أيضا سلوكه غير المحايد الذى أصبح طابعا بارزا على غير ما كان مألوفا منه ، كان يتحاور بحماس ويؤكد أنه لابد للإنسان من موقف يختاره وأنه ليس هناك باحث حقيقى بلا موقف ينطلق منه فى بحثه، كذلك كان يتحدث، وكان يطيب له فى أوقات الفراغ أن يطوف فى الطرقات ويسجل أحداثا بسيطة عن مشاهداته فى الأحياء الفقيرة والهادئة ، كان يبدو فى بعض الأحيان مهووسا بفكرة اكتشفها لتوه وتشبث بها ، وكان كلما عبر ميدان التحرير يقف على الكوبرى العلوى لبعض الوقت كأنه يبحث عن شىء ضائع ولا يأمل فى العثور عليه أبدا ، لكنه يقف ولا يفكر مجرد تفكير فى عبور الشارع مهما أغرته الفوضى فى بعض الامسيات ، وكأنما كان قد أصبح مغرما بالنظام الدقيق وقادرا على تفسيره.

القاهرة – نوفمبر ١٩٧٧

غياب المواطن سيد غزال

في السابعة صباحا وكعادته كان يقف وسط زحام محطة المترو متوسط القوام متوسط الهندام، لوانحطت عليه عين ماميزته بشيء إلا تلك الانحناءة البسيطة التي يمكن بشيء من التحفظ القول بانها نوع من الإهمال أو فقدان الرغبة في التمايز اكتسبه رجل في منتصف العقد الخامس في ظروف تخصه، وكنتيجة لذلك يمكن اعتباره إنسانا متوسطا من كافة الوجوه وبتحديد أوضح: إنسانا مألوفا ومكررا بشكل يصعب معه الالتفات إليه باكثر من النظرة الاولى العابرة لأنه دائما هنا ، موجود بشكل غير محسوب وليس من العسيرالعثور عليه في أي وقت فهو ضروري وغير ضروري بقدر ماهو موجود وغائب.

كان السيد : سيد غزال يقف في ذلك الصباح ناقلا بصره بين وجوه النسوة وأجسادهن يبلع ريقه من آن لآخر ويتحول إلى الناحية الأخرى قائلا لنفسه أن النظرة الاولى مغفورة لخلوها من الاغراض أما الثانية فحرام لكونها مقرونة بالرغبة كما علمه الشيخ ، وقد جاهد نفسه جهادا طويلا وحقق كما يقول لنفسه تلك المعادلة الصعبة ، متع عينيه ولم يشعر في ذات الوقت بعبء الذنوب « والمدينة براح ياسيد والنسوان فيها أكثر من الهم على القلب » نظر إلى ساعته وحسب الدقائق وتأكد من إمكانية الوصول إلى مكتبه قبل المواعيدالرسمية التي يحرص عليها أشد الحرص عملا بنصح المرحوم والده، كان راضيا عن نفسه لا نتظامه طوال تلك السنوات التي عملها في سلك

الوظيفة « وما الوظيفة ياسيد الا الانتظام فى الحضور والانصراف وطاعة الرؤساء» ولقد اعتاد تلك الصحوة المبكرة منذ زمان طويل ، ولولا سنوات النسيان الطويلة التى جمدته بين الدرجتين الثامنة والسابعة لاختلف الأمر ، صحيح أن قانون الرسوب الوظيفى انقذه ودفعه دفعا إلى الدرجة السادسة الكتابية الجديدة ، وصحيح أنه بموجب حساباته يمكن أن يحصل على درجتين أو ثلاث درجات أخر لو خدمته الظروف لكنه أمر لا يضمنه. . لما جاء المترو انحشر فى زحامه وسط أجساد تتصارع وأقدام تتدافع ، جاهد ليحتل مكانا مميزا فلم يفلح فترك جسده يواجه الضغوط من كل جانب وتحامل على نفسه عارفا أنها نصف ساعة من الاحتمال وعليه أن يحتمل برضاه أو غصبا عنه فطوع نفسه على الرضى .

عندما ترك المترو فى آخر الخط اتجه كعادته ناحية البائع واشترى جريدة الأهرام طواها بحرص وحطها تحت إبطه الايمن فتح عينه تماما وهو يعبر الإشارة إلى ميدان الشهيد عبد المعنم رياض ثم نظر إلى ساعته وحث خطاه إلى ميدان التحرير ، وانحرف يميناً الى أول شارع التحرير، ثم إلى شارع نوبار حتى مدخل وزارة الخزانه.. فى مكتبه الذى لم يتغير منذ نقل الى هذه الوزارة . كان يجلس بوقاره المعهود فى تلك الساعة من الصباح ، فخورا بنفسه كل الفخر ومشاركا سعداء العالم فرحتهم ، طلب لنفسه شاياً بالحليب وفتح الجريدة عند صفحةالوفيات وراح يقرأ أسماء الموتى وذويهم ويهمهم عند ذوى الحيثيات الخاصة الذين يهتم بهم أكثر من

اهتمامه بالنظر إلى حريم المدينة ، ولقد دأب منذ سنوات على ذلك النظام ، ما أن يقرأ النعى حتى يسترجع تاريخ صاحبه من ذوى الحيثيات وغالبا ماكان يحاول استعراض معلوماته على مسمع من الزملاء فى إدارته متباهيا بعرض ذاكرته الواعية التى تشبه العقل « الالكترونى» كما يقولون . مستعرضامعلوماته الجمة التى اكتسبها على مدار السنوات ، لكنه فى الأيام الأخيرة لاحظ بعض التغير فى بعض الأمور لأسباب مجهولة أدت إلى جعل الزملاء فى الإدارة غير متحمسين لسماع ماكان يعرفه ويحب أن يحكيه عن الاموات من ذوى الحيثيات الخاصة وكما لوكان قد بدأ يشك فى أن ذاكرته الواعيه أصبحت أقل قدرة على تنظيم الأحاديث فى موضوعه المحبب أوأنه أصبح أقل قدرة على اختيار اللحظات المناسبة للحديث، كان موظفوا الإدارة يتوافدون الواحد تلو الآخر، منهكين ساخطين يشكون من زحمة المواصلات وكأنهم يعانون وحدهم صعوبتها ، كانوا بارعين فى فتح مواضيع أخرى لا تخصه كفيلة باستهلاك الوقت مثل أزمة الاسكان التى حلها بحجرة سكنها قبل الازمة ولم يتركها، أو زيادة الاسعار وصعوبة العثور على بعض السلع ناسين أن الصحف تلح على تذكيرهم بأن البلد تعيش فى حالة حرب منذ سنوات وعليهم الاحتمال ، ولما لم يكن قادرا على تقرير الرأى السديد فى بعض الأمور فقد دأب على الصمت ولم يطالب نفسه بالبحث عن تفسيرات أو حتى استيعاب الامور التى لا تخصه مباشرة وبشكل قاطع . ولقد كلفه ذلك السكوت نوعا من القلق الخفى مجهول المصدر استمر

شـهورا بطولها أوشك خلالها على طلب اجازة اعتيادية لولا الحياء من رئيس القلم وتخوفه من إمكانية رفض الطلب واضعا فى اعتباره أنه لم يحصل خلال السنوات الخمس الفائتة على يوم إجازة واحد قائلا لنفسه أن الاجازات ترف لا لزوم له وأن كان حقا مشروعا وأن أولئك الذين لا يحسنون استغلال أجازاتهم لابد تكتب عنهم تقاريرسرية سيئة.

كانت الدقائق تزحف ببطء بينما يقلب بعض الأوارق أمامه بشىء من الفتور ورغبته تقل فى فتح الحديث عن الرجل ذى الحيثيات الجمة والمنشور نعيه فى ذلك الصباح نفسه والذى يعرف الكثير عن تاريخه الخاص- بل إن الرغبة تهالكت تماما إزاء ماكانوا يتجادلون فيه بشكل حماسى زائد . قال الموظف الجديد لرئيس القلم نفسه متسائلا :

- قرأت الرواية؟

أجاب الرجل بوقار متحفظ:

- نعم ..

سأل الموظف الجديد زميله الجديد الآخر:

- لم تكلمنى عن رأيك فى رواية نجيب محفوظ الاخير ة..

الاستاذ غباشى قرأها أيضا

قال الموظف الجديد الثانى بغير اهتمام:

- لابأس بها على كل حال .

قال الاول وكأنه يجره قسرا إلى الكلام أكثر :

- كلام عام قل رأيا محددا.
رد الموظف الثانى ضاغطا على الكلمات وكأنه يؤكدها بشكل ما:
- أشعر أنه سخر من عقولنا على نحوما.
هنا اندفع رئيس القلم بحماس رجل يخشى بالفعل أن يكون الكاتب قد سخر من عقله هو بالذات:
- هذا كلام فارغ.
قال الموظف الثانى مدهوشا وهو ينظر إلى رئيس القلم:
- ماهو الفارغ فى هذا الكلام يا أستاذ غباشى .. أنا قلت أنه يسخر من عقولنا، ليس معنى ذلك أن الراوية سيئة فلماذا الانفعال .. نناقش بهدوء.
وكرجل وقور متزن يمارس نوعا من الديقراطية ويدفع عن نفسه نظرة الحماس المتحفز من عيون الولد الجديد ودون أن يورط نفسه قال:
- عموما أنا قرأتها بعد السهرة ونوم العيال وربما لم أفهم كل مافيها.
وهنا اندفع السيد: سيد غزال مدافعا عن عقل رئيس القلم الذى يتراجع كما يظن وناظرا إلى الموظف الجديد بنوع من التحدى:
- نجيب محفوظ أحسن كاتب فى مصر.
وسأله الموظف الجديد الأول بابتسامة مستهينة:
- حضرتك قرأت رواياته ياأستاذ سيد؟
أجاب متهربا من تقرير الحقيقة:

– طبعا.. زمان وأنا فى مثل سنك .

سأله الموظف الجديد الثانى مناكفا وكأنه يحاصره:

– وماذا عن رواية الكرنك موضوع النقاش ؟ قرأتها؟

واحتار السيد : سيد فى الجواب ، نظر إلى رئيس القلم يستمدمنه العون لكن الرجل انسحب بنظرته فاندفع هو نفسه مرة أخرى مدافعا عن موقفه بحماس زائد وسأل :

– وحتى لو لم اقرأها هل تنكر أنه أحسن كاتب فى مصر ؟

قال الموظف الثانى دون أن يظهر عليه أى بادرة من بوادر الهزيمة :

– هذه قضية أخرى ، ودخولك النقاش دون أن تقرأ الرواية لايفيد .خذها من الاستاذ غباشى وبعد نتناقش.

– لا .. لن أقرأها .. ارتحت؟ ونجيب محفوظ أحسن كاتب فى مصر كما قلت لك.

كان يبدو مستفزاً ومكبوسا بشكل يصعب فهم أسبابه، فغير الاستاذ غباشى الموضوع إنقاذا للموقف ونصح الموظفين بإنجاز المتأخر من الاعمال إن كان ثمه أعمال.

قال السيد سيد لنفسه أن الموظفين الجدد غريبوا الأطوار، الواحد منهم مازال فى الدرجة الثامنة ولا يكف عن إثارة المناقشات مع الرؤساء ويدأب على الثرثرة العقيمة التى لاتفيد وتساءل بينه وبين نفسه « من أين يتسنى لهم شراء الكتب والمجلات » وطمأن نفسه قائلا : « إن على الموظف العام أن يتعرف على السياسة من

الصحف اليومية فقط، فالكتب حسب ما نعرف تفسد العقول وتخرب البيوت» هكذا انتهى يوم العمل وحان موعد الانصراف دون أن يتحدث عن الرجل الذى نشرت صورته بجوار نعيه فى هذا الصباح نفسه .

فى ميدان باب اللوق وبينما كان يعبرالشارع لمح زميله القديم الأستاذ : شعبان أبو المكارم فحاول أن يتخفى متذكرا السلفة التى لم يسددها لكن الأخير ناداه وعبر الشارع إليه وهو زميل قديم على أى حال منذ كانا معا فى مدرسة التجارة المتوسطة وفى مدينة كهذه المدينة لابد لرجل متوسط الحال من صاحب يذكره فى ساعات الضيق وهى كثيرة وقد كان الاستاذ شعبان صاحبا من هذا النوع ، ميسور الحال ومتيسرا وقادراعلى الإسهام فى تفويت حالات العسر المادى وتقديم سلف مؤجلة لنهايات الشهور العصيبة ، قال الاستاذ شعبان بشوق طاغ:

– أين كنت يا رجل منذ يومين؟

– موجود.

– كنت أفكر فيك طوال هذا اليوم.

– خير أن شاء الله .. متأسف لأنى لم أحضر .. لم أجدنى قادراعلى سداد المبلغ هذا الشهر فخجلت أن أزورك بدون ...

– آه ... المبلغ ..لا يهم ..

قال السيد سيد مبررا ومحاولا تقديم اعتذار مقنع:

– أنا مقصر فى حقك فعلاً .. إنما...

أوشك أن يسترسل فى طرح مبرراته طالباً لغفران الاستاذ شعبان لكن الأخيرقاطعه متسائلاً:

- مارأيك فى أن تلاعبنى عشرة طاولة؟

هان الامر عليه وأومأ موافقا .. سحبه الآخر من كوعه وأتجه به نحو مدخل المقهى المعتاد .. هكذا دائما كلماقابله الاستاذ شعبان أخذه ولاعبه وهزمه، وكل مرة حاول فيها آلا ينهزم لكنه دائما ينهزم .. وإثر كل هزيمة يتوهج وجه المنتصر بنشوة النصر بينما يحس هو بعنف العجز لكنه قال لنفسه مبررا ماسوف يحصل له: «لابأس من أن ينهزم الواحد منا مادام هناك من يصر دائما أن يهزمه».

قال الاستاذ شعبان وهو يرمي الزهر ويشير إلى الجريدة المطوية:

- قرأت ماهو مكتوب عن زيادة المرتبات ياسيد ؟

انتفض سيد بشوق وارتعشت أنامله وهو يسأل متلهفا:

- هل ستزيد المرتبات ؟

- دش ... الموضوع محل دراسة.

- صحيح ؟ربنا يبشرك بالخير.

- دبش .. لكن هناك مشكلة .

- ماهى ؟

- شيش بيش .. مسألة الأسعار .. يجب تثبيت الأسعار ..درجى .. افتح عوضك على الله فى خانة « اليك » يجب تثبيت الأسعار لأنها متحركة .

قال السيد : سيد لنفسه مهموما بسبب خانة «اليك» والأسعار التى تتحرك .. أنه برغم حصوله على دبلوم التجارة المتوسطة لم يسمع قبلا عن حكاية تثبيت الأسعار هذه .. قال الآخر بشماته:

– وسيرتفع مرتبك بنسبة كبيرة تماما كما ترتفع هذه الورقة السوداء على ورقتك البيضاء فى خانة اليك .. عندك أمل ؟

رد السيد سيد بحسرة وبشىء من اليأس والتسليم:

– بعدما حبستنى فى خانة اليك ؟ العب غيرها .

رفض الاستاذ شعبان أن يلعب غيرها .. هكذا دائما يأبى الاستاذ شعبان أن يمنح صاحبه فرصة الدفاع عن نفسه وتعويض هزيمته .. أغلق الطاولة فقام إثر صاحبه متمتما بكلمات غير مفهومة مجاهدا أن يجد تفسيرا لسلوك صاحبه الدائب على هزيمته وعدم منحه فرصه للتعويض ولما حار فى الأمر قال لنفسه «أنت حنبلى يا سيد، المسألة لا تستحق كل هذا الكدر وماذا لوهزمك ، المسألة كلها زهر ولا تخضع لبراعة، حظوظ .. ومادمنا نلعب فلابد من مهزوم ، إنما الغريب أن الاستاذ شعبان كان يصر فى كل مرة أن يقوم منتصرا حتى فى المرات التى كان السيد: سيد يبدأ بالفوز فانه كان يلح على الاستمرار فى اللعب ويجبره عليه حتى ترجح كفته ويقوم منتصرا وكان هذا هو ما يحير السيد: سيد»

وعندما تركه الاستاذ شعبان أبو المكارم وحده أحس بدوخة وضعف شديدين فقرر أن يسند قلبه بشراء نصف كيلو لحم .. ذهب الى الجزار لكنه أحس بالحيرة أمام الاصناف وأى صنف يطلب حتى

أربكه الجزار بنظرة عدوانية جعلته يقول دون أن يكون واثقا من حسن اختياره:

– نصف كيلو ضاني.

أضاف برجاء وفى صوت خافت ليزيح سكين الجزار عن مكانه:

– أحمر لو تكرمت.

لكن السكين كان يتحرك حيث أراد الجزار وهو يقول فى محاولة مكشوفة للضحك على الزبون :

– «ملبس » إنما على كيفك.

قال هو مدافعا عن موقفه وكأنه يستجير:

– أنا لا أحب الملبس .. عندى عسر هضم وإسهال مزمن.

أبعد الجزار سكينه عن الملبس ونظر إليه باحتقار متأففا وقال :

– لو كل واحد ناكف معنا هكذا فملعون اللحم ونصف الجنيه الذى دفعته ، خذ فلوسك واتكل على الله.

– لكن يا معلم .

– قلنا اتكل على الله يا أفندى وفوت هذا اليوم على خير .

كانت لهجته قاطعة وباترة كنصل سكينه المرهف لاتقبل النقاش وتحمل قدراً من الوعيد جعله يسحب نصف الجنية من يد الجزار ويتكل على الله .

فى طريقه إلى محطة أول المترو .. انحشر فى الزحام وأسلم نفسه لدفعات الأيدى والأكتاف فى جو خانق ومحبوس.. بصعوبة

وعسر كان يأخذ أنفاسه ، عندما جاء المحصل لم يستطع تعيين المحطة التى ينوى الذهاب إليها .. حسبه الأخير أخرسا فناوله التذكرة بينما كان يسأل نفسه عن سر ذلك الضيق الذى يحسه فى صدره .. لعن الاستاذ شعبان وزنقته فى خانة اليك .. دعا على الجزار بخراب البيت ، لم يعرف مالذى جعله يستعيد كلاما سمعه من الشيخ الذى كان يحضر عليه درس رمضان الماضى :

« وهكذا ترون يا أبنائى أن الذين نجحوا فى الحياة أقل منزلة منكم عند الخالق، انتم اشتريتم الاخرة بالاولى أما هم فيرغبون فى ثلاث: المرأة والمال والسلطة .. وكلها أمور مبهجة وإن كانت من عرض الدنيا الزائل ، بل انها لاتدوم حتى فى الدنيا ، ولكم نسمع أنهم يتصارعون على أكثرها دواما وهى السلطة ، يتزاحمون عليها ويتكايدون من أجلها ، ويتوسلون إليها بشتى الوسائل ناسين أنها لاتدوم ، فاتقوا الله يأولادى وبيعوا الدنيا فهى فانية واستمسكوا بحبل الله عسى أن يحفظكم ويتم عليكم نعمته وتكونوا من أهل اليمين ».

كان المترو قد وصل بالفعل إلى نهاية الخط تاركا محطة السيد : سيد وكان هو قد تاه تقريبا عما يدور حوله ، أرشك على السقوط لولا أن سنده رجل متوسط الحال فأنزله إلى الرصيف بمساعدة سيدة عجوز، كان وجهه يتصبب عرقا فشرع الرجل يهوى عليه بالجريدة اليومية لكنه ظل غائبامدة ثم بدأ يحس بما يدور حوله ويستعيد وعيه ، لما اطمأن الرجل إلى سلامته قدم إليه زجاجة مياه غازية كان قد

اشتراها من أجله ، شربها ممتنا للرجل وشكره ثم قام وشد على يده وأعطاه اسمه وعنوانه ورقم تليفونه فى الوزارة ووعده بتقديم أى خدمه ، ثم ركب المترو العائد قائلا لنفسه انها أزمة طارئة سرعان ما تفوت ويستعيد نشاطه ويصبح كما يقول عن نفسه كالحصان.. لكنه عندما نزلَ من المترو وسار فى اتجاه البيت عاودته بداية النوبة وأحس بمغص فى معدته وبالتهاب فى جوفه وأحس بأنه دائخ فتماسك قدر المستطاع حتى وصل إلى حجرته .. عمل لنفسه كوبا من عصير الليمون وشعر بشىء من التحسن لم يدم طويلا .. قال لنفسه أنت جائع يا سيد وربما لما تأكل ترتاح .. قام يبحث عن النقود فى جيب بنطلونه فحسبها غير موجوده .. عاود البحث ولهفته أقنع نفسه أنها ضاعت .. كانت النقود موجوده فى جيب القميص لكنه كان قد نسى وكان أ يضا قد خلعه وعلقه على المسمار، أحس بالحسرة على ضياع جنيهاته الخمس التى كان يعّول عليها بشكل أساسى للصرف على روحه حتى نهاية الشهر.. أحس بالخدر يسرى فى كل بدنه وتصبب العرق فوق جبهته غزيرا .. لفحته ريح فاشعرته ببرودة وقشعريرة .. تفكر فى الاستاذ شعبان ابو المكارم كوسيلة قادرة على إخراجه من ورطته المالية لكنه استسخف الفكرة ، حاول الوصول إلى فراشه ليتدثر بالغطاء ويرقد لكنه داخ وسقط فى وسط الغرفة .. كانت السقطة مفاجئة وعنيفة .. فتح عينيه وجاهد أن يقوم لكنه عندما نظر إلى ماخرج من فمه غصبا أحس أنه انتهى لتوه لانه كان قد طفح دما ... قال لنفسه:

- انتهيت يا سيد.

وعلى الفور عاود ما كان يقوله لنفسه عندما هزمه الاستاذ شعبان أبو المكارم انما كانت الكلمات تخرج دمدمات غائبة نصف مدركة .. لابأس .. من أن .. ينهزم الواحد منا ياسيد...فلابد ... في... هذا .. العالم .. من . منتصر وقد أراد الله لك أن .. تنهزم .. وهناك دائما .. من يصر .. على حصارك.. وهزيمتك .. وكبس أنفاسك..

كان عقله يتشبث ببعض الصور فتتشابك الأشياء وكان جهده المبذول من أجل الخروج من حالة التهالك التام إلى حالة نصف الوعي يسفر عن تأكيد انهياره .. وقد كان وعيه نصف المدرك يحس بما تبقى له من قدرة على الإحساس بأنه يذوى .. ينتهى ويموت .. ولم يكن ثمة أحد .. لم يكن ثمة غرض ولا حلم لم يتحقق ليحس بالحسرة لأنه لم يحققه .. كل ما هنالك انه كان يموت فى سكون بليد وبلا ضجيج .. وعندما أوشك البدن على السكون الكامل انتفض انتفاضة وحيدة دون أن يلحظه أحد ناسيا أحلامه القديمة فى الدرجات .

***

أشر رئيس القلم لليوم الخامس على التوالى أمام اسم المواطن سيد غزال بالحرف غ مستخدما قلمه الاحمر ولولا ماكان يحرص على تأكيده للموظفين الجدد من أن الامر ليس فوضى لما اشر ولطاوع الولد الذى عرض عليه منذ البداية أن يوقع بدلا منه .. ولقد صحت توقعات رئيس القلم عندما جاء الاستاذ شعبان أبو المكارم

وأبلغهم خبر وفاة الأستاذ سيد ففتح رئيس القلم دفتر الحضور والانصراف وأشر بقلمه أمام اسم السيد سيد كاتبا « توفى الى رحمة الله الرجل الذى عاش دون أن يشعر بوجوده أحد » ثم أقفل الدفتر وحطه فى درج مكتبه الكبير ومصمص شفتيه وهو ينظر إلى صورة المواطن سيد غزال التى تبرع الاستاذ شعبان بنشرها على نفقته الخاصة لحبه الشديد للمرحوم .. كان رئيس القلم ينظر الى الصورة ويمصمص شفتيه حسرة ويتخيل آن الوجه المرسوم يوشك أن يحدثه عن ميت منشور نعيه فى نفس الصفحة ويتميز بحيثيات خاصة فخاف الرجل على عقله أن يطير وطوى الصفحة بينما كان أحد الموظفين يجادل الآخر قائلا :

– فى سفر التكوين ان الله استراح فى اليوم السابع .

– لكنه كلام اليهود وخيالهم خصب لكنه أكاذيب .

– ولماذا لا تصدقه .؟ اليس كتاب الله أيضا ؟

قال الاستاذ غباشى محموما وعروق رقبته تنفر بشكل واضح:

– اخرس انت وهو .. هذا كفر وزندقه .. زميلكم سيد غزال مات.

وشهق الولدان ونظرا الى إلرجل غير مصدقين وكأنهما ينظران إلى مجنون لكن الاستاذ شعبان أكد لهما ماجرى فراح أحدهما يجمع القروش اللازمة من أجل إعادة نشر نعى فى نفس الجريدة التى كان يحبها المواطن سيد غزال .

تصفية دم المواطن

سيد عوف

الجرح

انفلتت تعبر ميدان التحرير بلونها الرمادى المميز وامتدادها المفرط ، كسرت الإشارة وخبطت المواطن سيد عوف غدرا ، لم يتيسر التقاط رقمها من فرط سرعتها ، سقطت علبة اللفافات اولا، طوحهارد الفعل ورماها على بعد امتار من البدن الذى اختل توازنه إثر الضربة المفاجئة ، ترنح وهوى ، صفعته الارضية الصلبة فانتفض ، تقلص ملموما على نفسه ولكن بعد فوات الاوان ، لوأنه تقلص قبل الضربة بلحظة واحدة لكان شبيها بحيوان القوقعة ، يتقلص ويتوارى داخلها فتهون عليه أثر الخبطة ، تتلقاها عنه، حتى لو تحطمت وغاصت أطراف أجزائها المهشمة فى لحمه فربما ينزف إنما إثر لحظة الاستعداد للنزف، ربما يموت انما بعد ان يكون قد توقع الموت ، ربما عبر لحظة او جزء من لحظة يدرك ما يدور حوله ، يهون الامر على نفسه عبر اللحظة التى يختصر فيها العالم، يقيسه ويتشبث به أو يرفضه، يدينه أو يصفح عنه .. لكن ما حدث فى ميدان التحرير كان يختلف ، فالذى سقط قبل ان يتوارى داخل قوقعته إنسان. سقط ملموما على نفسه كرد فعل عاجز حتى عن استحضار لحظة الإدراك لما هو فيه ، فالضربة لم تدع له فرصة الإدراك ربما لو أدرك لصرخ مستغيثا باسم انسان او فكر فى البوح بسر ود لو يقوله لكنه خاف ولعله فى تلك اللحظة الواعية كان يتأكد لديه ان

الخوف يتساوى مع الخسارة . كان من الممكن اذن ان ينطق بشىء ما لكنه لم ينطق بكلمة ، اخرج من حنجرته صوتا لا هو بالأنين ولا هو بالحشرجة ، عله صوت التداخل المفاجىء لجزئيات البدن البشرى المخبوط منفلتا من حنجرة فقدت وظيفة الحنجرة « ه ... ع» قالها متقطعة وبعيدة الصلة عن أصل الحرفين المنطوقين .

كان الدماغ المضروب قد غاب فى اللاوجود وتحولت العينان السوداوان الى عدستين مفتوحتين لايطل من خلالهما أحد ، تهالك الكيان على ارضية الميدان منكمشا على نفسه ثم منتفضا ، ملموما ثم مفرودا بحسم قاطع وعبر لحظة وحيدة تقطعت خلالها الانفاس وسكن البدن فى وضع محدد، تجمدت العد ستان المفتوحتان فالتفت من لم يلتفت. اقترب أكثرهم قدرة على مواجهة اللحظات العصيبة، خبط كفا بكف وراح يدمدم بكلام غير مفهوم . سأل أحدهم إن كان اى منهم قد التقط رقم السيارة فهزوا رءوسهم نفيا، قالت البنت انها تحمل رقما جمركيا لكنها لم تستطع قراءته رغم حدة ابصارها ، قال رجل متوسط العمر إن السيارة من طراز « شفروليه» سنه ١٩٧٦ جادله رجل بانها مرسيدس وليست لها أرقام على الاطلاق.

لم يكن ثمة جرح ظاهر، لم تسل على الارض قطرة دم واحدة ، قطع السكون الذى خيم للحظات سائل متعجل قائلا :

– من الذى خبطه ؟

لم يتلق ردا، تأكد لديه أن أحدا لا يعرف الحقيقة، هزكتفيه ومضى فى طريقه، وكعادة الناس فى ميدان التحرير عندما يسقط

احد فى حادث تطوعوا بصحف الصباح وغطوا البدن، كان فى بعض العيون خوف مرعوب من مجهول يمكنه أن يحيل الواحد منهم إلى كومة من اللحم الساكن بلاحراك وفى وضح النهار ، قال عجوز يرتدى جلبابا شعبيا :

– دمه هربان

قال افندى متحذلق :

– يمكن ان يموت الانسان دون ان ينزف، هناك شىء اسمه النزيف الداخلى .

اصر العجوز على ان دم المواطن سيد عوف هربان ، فقط هربان، اكدت البنت وهى تبكى وسط مجموعة من المواطنين انها لا تعرف القتيل وانها لمحت رقما لا تذكره على مستطيل أزرق مما يدل على أن السيارة حديثة الاستيراد . هون البعض عليها وأبعدها، اطل على اوراق الصحف التى تغطى البدن طفل يحمل جهاز استقبال صغير، ابعدوه ففتح الجهاز ليرتفع صوت مطرب شهير باغنيه تقول كلماتها:

– تخونوه وعمره ماخانكم؟

كانت ورقة الصحف التى تغطى الراس قد تلوث طرفها بشىء احمر، اقترب العجوز وأزاحها، كان خيط الدم ينزف فى بطء انما بانتظام من مؤخرة الراس، بحثت عينا العجوز عمن كان يجادله فلم يجده ، دمدم بلا حول ولاقوة الابالله. ظل خيط الدم ينزف ويلون أوراق الصحف، حتى عندما جاءت عربة الاسعاف واتخذت لنفسها

مكانا قريباً ونزل رجالها وفحصوا البدن لم يتحمسوا لعمل شيء وبدا للجمع الملتف أنهم بخبرتهم الطويلة يفهمون الحالة تماما ولذلك اتخذوا لأنفسهم ركنا بعيدا دون أن يبدو عليهم أن الامر يخصهم بأى حال من الأحوال .

قال أحد المارة معلقا على استهجان البعض:

– الاسعاف لا تختص بحمل الموتى

عقب رجل متواضع الهيئة:

– ربما كانت فيه الروح .

قال شاب متوتر الملامح:

– انهم حتى لم يفحصوه كما ينبغى ، اكتفوا بالنظر والابتعاد

ردت سيدة سمينة:

– كأنهم فى نزهة

قال رجل تبدو عليه الطيبة المفرطة:

– ربما عندهم تعليمات بعدم نقله من الميدان إلابعد المعاينة.

قال الشاب المتوتر وكأن الامر يخصه دون خلق الله:

– كانت عربة الاسعاف تلف الميدان قبل الحادث، هل يعتبرون أنفسهم من الوجهة الإدارية غير مسئولين لانهم لم يتلقوا بلاغا من أحد ؟

قال آخر:

– لكنهم شافوه ورؤيتهم فى حد ذاتها بلاغ.

قال العجوز:

- ربما ينتظرون ريثما تتم تصفية دمه.

سخر الشاب المتوتر وقال بمرارة:

- حتى لا يعوضهم.

لكن الدم كان ينزف ورجال الاسعاف فى ركنهم دون ان يبدو عليهم انهم منوطون بعمل أى شىء فى هذا الخصوص.

ولم يتحقق شىء.

اللوم:

« انت مشروع لم يتم »

قالتها البنت هدى للولد سيد فكف عن الضحك ، تقلص الوجه وانعكست فى عينيه نظرة غريق سقط لتوه فى هوة بلا قرار ، تكهرب الجو وتغير طعم المشروب فى الافواه ، قال الولد احمد لنفسه .. سوف يحسبنى قلت لها كلاما عنه بهذا المعنى وعنده حق ... حطت اجنحة الصمت عليهم فى ركن امريكين سليمان باشا فسكتوا وحاصرتهم الهمهمات من حولهم، بقيت نظرة الولد سيد متجمدة وجريحة، كانه يستجير بالصمت ، كانت البنت هدى تتلهف للخروج من المازق الذى حطت نفسها معهم تحت سطوته، فكر الولد احمد فى أنه من الممكن أن يكون فى كلامها شىء من المنطق الحريص على مصلحة صاحبه انما العبارة حادة ومفزعه بشكل يصعب احتماله ، لو انها كانت اقل قسوة لا حتملها سيد فهو قادر على الاحتمال ، وجد بصيصا من ضوء فى التهوين من الامر ، قال وهو

يلتفت الى شقيقته :

– انت تقولين كلاما غريبا ياهدى، لم اتصور انك تعشقين الطنطنة بالكلمات الرنانة .

ظل الصمت على حاله فالتفت الي صديقه سيد وقال :

– انهم جيل متعجل فى أحكامه كما ترى ونحن مطالبون بفهمه وتصحيح أخطائه.

كان الإنسان الجريح مازال مرتبكا وعاجزا عن النطق وان كان ظنه المسبق قد انزاح ، كان الولد احمد يجاهد فى أن يتحول الموقف الى شىء عابر دون أن يخلف فى النفوس أثرا، قال وهو يتحسس الكلمات ويزنها متخوفا أن يتأكد ما يحاول نفيه:

– أنا واثق أنها قالت ذلك من باب الحرص عليك ، ثم انها تقول لى كلاما شبيها بذلك ، وبعيدا عن تبرير ما قيل استطيع أن أعدل الصياغة ، ساقول مثلا انك مشروع قابل للتحقق بقدر ما انت قابل للضياع ، أعنى أن أسلوب حياتك يجعلك تبدو مستسلما لضياع وقتك فى أمور لا تفيد.

قاس الولد سيد كلام صديقه ووجده قابلا للرد والمناقشه، قال دون ان يتحمس:

– إنه مرض العصر وكلنا مصاب به كما تعرف انما لايحق.

قاطعه الولد احمد بابتسامة:

– اعرف .. اعرف .. انا مثلك واعرف ان وصف الانسان بانه مشروع لم يتم . يعتبر إهانة ، لكن يمكن ان توضح لهدى انها

مخطئة لانها لاتعرفك تماما وليست هذه مسئوليتك، اللوم الحقيقى موجه لاختى.

قالت البنت هدى بحماس ..

– انا حريصة عليه ولم أقصد تجريحه

قا الولد أحمد ملطفا الجو :

– وأعرف ذلك أيضاً، انما انت لاتعرفين مثلا ان لسيدمسرحيتين شعريتين مكتوبتين ومرفرضتين، انا لم اقل لك هذا قبلا.

اضاف سيد وشبح ابتسامة يرف على جانبى شفتيه:

– وديوان كبير غير قابل للنشر لظروف عديده.

قالت البنت بخجل وكأنها تتدارك شيئا فاتها :

– لكننا كلما نزلنا وسط البلد وجدناك، انت نفسك اعترفت بضياع وقتك اكثر من مرة.

احس الولد أحمد أنه أفلح فى تحويل الموقف إلى مجرد موضوع قابل للنقاش، قال لنفسه « إن أقسى ما يواجهه الفنان هو الغاء وجوده وتجاهله عن عمد أو الحكم عليه بالموت بينما هو حى يعطى »

قال لنفسه أيضا « ان سيد شاعر موهوب فى مدينة لاتفتح صدرها إلا لأنصاف الموهوبين، انه يدفع وبكامل رضاه ثمن اختياره يوما بيوم وساعة بساعه» ..

تدخل الولد احمد فى النقاش الذى اصبح عتابا بين سيد وهدى وكانه بين أخ أكبر وأخته قال :

– كله محسوب من أعمارنا لكن ما حيلتنا؟



قال الولد سيد :

– على أى حال هذا الكلام جعلنا ننتبه لأ نفسنا ياصاحبى ، علنا نخطط لمستقبلنا حتى نتحول الى مشاريع قابلة للتحقق، وافق الولد احمد والبنت هدى واندفع ثلاثتهم فى عمل برنامج للقراءة والكتابة والوقت الضائع ، وكل ما كان يجيش فى نفوسهم من رغبة فى الخروج من أزمة الاحساس بالضياع قالوه، وإمعانا فى علمنة اللحظة اتفق أحمد مع سيد على اللقاء فى الخميس القادم وفى جيب كل منهما خطة مكتوبة وقابلة للنقاش ، وتحول الموقف إلى لحظة عابرة بين شاعرين وبنت تنتمى لاحدهما بصلة الدم ولكن فى يقينها انهما لايختلفان فى شىء رغم ان الاخر غريب ، وفى التاسعة والنصف كان الوداع بين ثلاثتهم على ان يكون اللقاء التالى فى السابعة من مساء الخميس.

ولم يتحقق شىء ...

* * *

« انت مشروع لم يتم» ..

كذلك قالت البنت هدى للولد سيد فى ذلك المساء ولم تكن تدرى ماهو السر الذى جعلها تجرؤ على الحديث اليه بمثل هذه اللهجة ولقد لامت نفسها كثيرا قبل أن يسألها الولد أحمد عن السبب الذى جعلها تضايق صديقه بمثل هذا الاتهام الأحمق، دافعت عن نفسها بانها لم تكن ترغب فى مضايقته وأنها تحبه كما لو كان أخاها وأنها لم تعرف السبب فى انها قالت له ذلك بينما هى تحب قراءة قصائده وتحترمه

، كل ما تعرفه انها نظرت الى عينيه بينما كان يضحك وقالت لنفسها انه مشروع لم يتم، وقبل أن تسال نفسها عن معنى ذلك التعبير انفلت لسانها وقالته وكأنما فقدت سلطانها عليه تماماوسألت أخاها ان كان من الممكن أن يقول الانسان كلاما فى صحوه دون ان يدرك سره أو معناه أو حتى يوافق عليه ، فاجابها بانه لايعرف ، وقال لنفسه .. ماجدوى أن ألومها على ماقالته مادامت لاتعرف كيف قالته، واضاف لنفسه أيضا .. إن سيد شاعر بحق ولذلك أثر فيه كلام البنت رغم أنها صغيرة وسوف ينسى ذلك بمرور الايام .

ولم يتحقق شىء.

* * * *

رحلة البساتين :

كانوا ينتظرونه عند مدخل الشركة ، كان أكثرهم شجاعة قد قالها:

– سيد عوف مات

رفض أن يصدق ، أكد الخبر ، رفض ، كان ذاهلا، كأنما حط عليه كابوس لا يحتمل ، ضغط الكابوس على قلبه، اخذوه اخذا واركبوه معهم بكى احدهم بصوت مسموع ، بكى الآخر بصوت مكتوم، ظل الثالث جامدا يدخن ، كان يقول لنفسه .. لوأصيب فى حادث فمن الممكن أن يكون جريحا أو حتى فاقدا لعضو او عضوين من أعضائه، أما أن يخلو العالم من وجهه فهذا هو السخف بعينه، حاول اسكات الباكين رافضا أن يصدق لكنهم نهنهوا أكثر ، ظل

يقاوم الفكرة ، عند باب المشرحه وجد خلقا ، نزلوا ، كان اصحابه واصحاب سيد يتحلقون حول الباب ، تاكد لعقله التائه ان الامر حقيقة ، انفجر فى بكاء حاد وهو يستند إلى ابراهيم الذى يبكى هو الاخر، قال له مؤمنا على ما سمع :

– سيد مات بحق ، سيد مات يا ابراهيم ..

جاء صوتها من هناك ، من احد الأركان حيث كانت تجلس على مقعد تنادى ، فقط تنادى :

– ياسا .. ييد .. ياسا .. يد

لم يكن فى عينيها أثر لدموع لكن صوتها القوى كان ملتاعا ومشحونا بالمرارة ، قالوا أمه ، لكنه كان يبكى ، لم يكن بقادر على التماسك ، لم يكن معه منديل ، كان الجو خريفا سخيفا ، كان الحزن يعشش عند باب المشرحة ، كانوا عشرات الصحاب، تجمعوا على غير موعد وتحاشى كل منهم النظر فى عينى صاحبه ، فى قلب كل منهم حزن يخصه ولا يملك أحدهم القدرة على ان يطل فى وجه الاخر ، تجمعوا وانفصلوا فى ذات اللحظة ، لحظة الموت الرهيب الخطاف، كانت زوجته هناك تبكى بصوت مسموع وبدموع ، أمه كانت بلادموع ، كان النداء يتكرر فى الاسماع فيكويها ويلسعها بواقع قاس لايحتمل ، قال لنفسه «كان اكثرهم وعيا وبساطة، كان إنسانا». تحسس فى جيبه خطة العمل المشترك ، موعدهم مساء الغد فهل يذهب ؟

اركبوه معهم ، قالوا للسائق :

- مدافن البساتين.

الموت والاشباح المتحركة صوب المدافن، تختفى المدينة ، وتهل المدافن، عندما نزلوا أجلسوه على حجر عند باب احد المدافن ، كانوا فى انتظاره، كانت الدموع تسح من العيون خلسة، والكلمات التى فقدت كل معانيها فى مواجهة الموت لاتقال .. ماذا تبقى منك ياسيد ؟ كلماتك المسطورة فى أوراق عجزت عن نشر اكثرها وانت تحيا، ومنذ الاف السنين يموت الشعر والشعراء فى أرجاء مدينتنا ، كانها مؤامرة مدبرة على العقل ، يترصدهم قدر واع بدوره لايمل «الاختطاف » .

كان القبر مفتوحا فى انتظار الجسد ، عندما جاء حملوه، حمله عشرات الصحاب وسط العويل المتواصل والنداء الجريح يخرج من أعماق الاعماق مرعوبا ومرتعبا، متشبثا باللحظة. مدوياً فى جنبات المدفن وعند بابه ، يزحف الجسد ببطء صوب الفوهة الضخمة التى لاتمل الابتلاع والقادرة على ابتلاع الكل، يهبط الدرجات فى تثاقل وكانما لديه سر يلبد تحت الأكفان البيض، يبحث عن يد جريئة تنزعه ، لكن الجمع الملموم لم يجرؤ على انتزاع الكفن ، يشرعون فى العمل ، تتطاول اللحظات حتى لتوشك ان تكون أعمارا بكل ما فيها من مرارات . توضع الأحجار على سطح الفوهة المرعبة وينهال الرماد ، تتساوى ارضية المدفن ، يحبكون الخدعة كانما لم يبتلع القبر لتوه انسانا فى احشائه المعتمة .. منذ الاف السنين يتفنون فى دفن الإنسان فى أرض مصر حتى لقد قال استاذ التاريخ القديم:

«ان حضارتها تخص الموتى اكثر مما تخص الاحياء ».

لاتجف الدموع بيسر ، تظل الجفون دامعة والالسن خرساء، والعقول عاجزة عن التفكير، ويزحف الجمع البشرى صوب المدينة. وفى القلوب حسرة الوداع دون وداع.

لم يتحقق شيء .

* * * *

العزاء:

كانت البنت فردوس ترتدى السواد، ادخلته حجرة صاحبه ، جلس على طرف سريره، كانت الحجرة تخلومنه ، كانت فردوس تقف قبالته وتختلس النظر إلى سطح المرآة، كانت تضع راحتى يدها على رأسها المعصوب بطرحة شيفون سوداء ونظرتها التى تتكرر الى سطح المراة تجعله يتقزز الما واختناقا قال لنفسه مستنكرا .. ترى هل تطمئن على حسن هندامها فى مثل هذه الظروف ، فى مواجهته وبطول الجدار كانت رفوف الكتب مشحونة ، وكان الدولاب الذى تنعكس على سطح مرآته صورة البنت فردوس موضوعا بين السرير والمكتبة ، كان السواد الذى افترش الارض يمتد كلسان وحش خرافى إلى مدخل الحجرة التى يخرج منها ذات النداء ، نداء الام الذى يخرج جرحا ذاهلا ولا يملك الا إمكانية الضياع فى سراديب الاذان النسائية ، كان الصوت واهنا ومبحوحا

- ياسايد .. ياسا .. يد .. ياسايد

ترى مازالت عيناها لا تدمعان ؟ كانت الكتل المجللة بالسواد

والتى تغطى المكان وتجعله مقبضا وقاتلا تؤكد انه ضاع ، ان مايدور واقع يستحيل الفرار من جبروته، نفس النداء تردد لكن الذى اختفى هو الوجه المذهول التائه والعينان الجافتان تماما ، لكنه كان اكثر قوة ، لعل اليقين لم يكن قد رسخ فى عقلها ، لعله لم يكن قد غزا القلب وحوله إلى آلة مضغوطة مستسلمة لشىء أكبر من الطاقة ، ها هو ينهد ويخفت ويبدو شاحبا .

ثرثرة البنت فردوس تدور حول نفسها ، حول تضحيتها بكل شىء من أجله واختيارها له رغم كل من تقدموا إليها ، حول عزمها على تربية ابنه الذى لم يولد بعد ، كان نداء الام يقطع الثرثرة معلنا عن وجوده غير انه كان كالسراب، ففى نفس تلك اللحظات يرقد سيد هناك فى العتمة وحيداً دون أن يقدر على الحركة ودون ان يتمكن من الوفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه بالمجىء .. هكذا ياسيد كنت تخلف المواعيد وعندما نلتقى كنت تضحك وتقول انك انشغلت غصبا.

« تولد المشاريع ولاتتحقق ، يولد الشعراء ولايكملون العطاء» قال الولد احمد لنفسه، قام وهو يحاول ان يدارى دموعه عن عيون الخلق ، لم يكن ثمة شىء يقال فأسر الى نفسه وهو فى الشارع «انهم يقتلون الشعراء »

«لن يتحقق شىء »

* * * *

يخلو العالم من وجه المواطن سيد عوف، تتعاقب جلسات

الصحاب ويتحاشى كل منهم الخوض فى الأمور التى كانت تخصه ، ينتهى الخريف وتكف رياح الخماسين عن اثارة الزوابع يوشك ان يكف الصحاب عن ذكراسمه ، لكنه عندما كان يطل الواحد منهم فى عين صاحبه ويمعن النظر كان يراه ، يلمح وجهه بابتسامته العريضة وحماسه الزائد ، كان سيد هناك فى اغوار الحدقات وعلى سطوح ما كان يترقرق من مشاريع دموع ، يرسخ الهم فى أعماق القلوب راضيا بالبقاء هناك وغير راغب فى الطفو على السطح ، تنقطع سيرته تماما، لكن الولد احمد يذكره ويوشك ان يؤكد لنفسه كل مرة انهم يذكرونه بنفس القدر من الوفاء . وعندما يغيب ويسأله واحد من الصحاب عن سر اختفائه الطويل يقول كلاما غريبا :

– المدينة مزحومة كما ترى وانا لا اشعر فيها بالامان ، كلما نظرت الى المركبات والسيارات الآتية من بعيد اقول لنفسى انه من الممكن ان تدهمنى إحداها ، اننى اضع فى جيبى عنوان أهلى فى البلد فانا كما تعرف غريب واختى لا شك سوف تعجز عن التصرف فى مثل هذه الامور ، اننى امشى جنب الحيطان وعلى الارصفة ولكننى لا اطمئن ، لدى شعور كانه اليقين فى احتمال ان تدهمنى سيارة فى أى لحظة وبلا مقدمات .

يهون عليه اكثرهم الامر ويؤكد له انها أوهام وعليه ان يتخلص منها لكنه يجادلهم بحماس دون ان يذكر لهم شيئاً عن سيد الذى يعرفونه تماما ثم يتابع حديثه :

– وما المانع فى أن تدهمنا هذه السيارة الآتية من بعيد ، تطلع

الرصيف وتنوسنا، المدينة مزحومة كما ترى وهى تزداد زحاما يوما بعد يوم ، إننى أرى الموت على أبوابها وداخل سراد يبها لا يحكمه المنطق، واخشى ما اخشاه هو تصفية الدم قطرة قطرة، افضل الموت مرة واحدة لكن دون تصفية الدم ، دون تصفية الدم .

وعبثا يحاولون إعادته لعادته القديمة لكنه يهمهم ..

– وسط هذا الزحام الخانق غير المبرر لن يتحقق شىء .

ملف ملكية
المواطن مرتضى الماحى

محبوسا داخل الكرسى الاسيوطى كان يجلس ، مهموما وعاجزا عن طرح المزيد من الاسئلة ، كان الاخر خلف المكتب على الكرسى الدوار يستخلص من داخل الملف اوراقا ثم يمزقها ، كان فى القلب جرح قديم ينفتح وحلم يتمزق مثل تلك الاوراق التى لابد وأنها تخصه أكثر مما تخص أى كائن فى هذا العالم ، لكنه لم يجرؤ حتى على الاستفسار عن هذه الاوراق، كان الملف يتضاءل على نحو ظاهر .. ربما على عكس الامل الذى كان يتزايد كلما التقى بالرجل وسلمه ورقة او شهادة أو مستنداً مطلوباً لنجاح القضية لم يكن الأمر مجرد قضية خسرها او حلم لم يتحقق ، بداله فى هذا اللقاء ان الرجل الذى وثق به واطمأن إلى قدرته قد تخلى عنه على نحو غامض ، صحيح أنه قريب من الدرجة الثانية لكنه من خلال الجلسات المتكررة والمحاورات وسهر الليالى والمشاركة فى الاهتمامات كان يبدو له اكثر من أخ، بل انه كان يزرع فيه الامنيات مؤكدا أن المكسب مضمون ، خمس سنوات ومزرعة الرجاء تزهر وترطب القلب ، لكنه فى تلك الليلة لم يكتف بإبلاغه أنهم خسروا القضية بل انه تحول وعلى غير توقع الى اسطوانه مشروخة تهدف إلى الى تيئيسه تماما من جدوى الاستئناف أو التفكير مجرد التفكير فى الاستمرار فى تلك الخصومة، زفر المواطن مرتضى الماحى كأنما ليعلن عن وجوده للأخر الذى لم يلتفت .. قام من جلسته ، لعله فكر أن يقترب من الاوراق ، يطل فيها أو يستجديها تفسيرا، لكن الآخر انتبه وجعل

يضـعـهـا بالمـقلوب بحـيث يتكشف الوجـه الخـالى ويتـوارى الوجـه المكتوب .. همـهم مبديا قدرا من الاستياء من تلك المحاولة الفاشلة لاقتـحامه فـأخجل المـواطن مـرتضى وأجبـره على مـعـاودة الجلوس ...غمغم:

– مجرد مسودات يلزم التخلص منها، سلم امرك لله يا رجل لانك لم تخسر القضـية لغريب .. هو ابن عمنا فى كل الحـالات ، بعد عنك أو قرب هو ابن عمك

– أعرف .

– أنت تعرف حبى لك، لقد حاولت بكل الوسـائل ... نصـيبك ، لو كان هناك أى آمل فى الاستئناف ما تأخرت أبدا..

– لكنك قلت مرة ..

– دعك من كل مـا كنت أقوله، أنا لم أخدعك طبـعـا .. كل مـاهناك أننى كنت آمل فى أشـيـاء لم تحـدث ، تكشـفت أمـور لم تكن فى الحسبان .. أنت لاتعرف قضايا المواريث ودهاليز أسانيد الامتلاك ، أنت شـاعـر ، مـالك أنت بهـذه الأمـور .. هـى شـغلى الشـاغل طوال عمرى وعندما أؤكد لك أنه لا أمل فيجب أن تتأكد من ذلك يامرتضى .. الاستمرار فى القضـية تعميق للخلاف وتوليد لعداوات أنت فى غنى عنها ..

– طبعا .. لكن ..

– أنت حر .. ، ملفك الآن جاهز .. فيه كل المستندات والتوكيل .. تفضل ..

مد يده وأخذ الملف لم يفتحه ، وضعه أمامه .. لم يكن لديه فى هذه اللحظات أى شىء يقال .

* * * * *

خجلانا من نفسه كأى مواطن شريف فى ماخور او مجتمع صغير من محترفى الفساد والافساد، كان يدخل الزقاق والملف فى يده ، كان يستشعر دفئاً غامضا وسط الرطوبة المسيطرة ، لعله دفء دم الضحية نفسه لحظة النزف ، كان الهواء باردا ولزوجة أرض الزقاق من أثر قطرات المطر تحذره من إمكانية السقوط، كان يخطو على مهل ونقاط المطر متناهية الصغر تكشف عن وجودها أكثر عندما تتساقط فى البؤرالمتناثرة على أرضية الزقاق دوائر متباعدة ومتقاربة بشكل عفوى ، كان عليه أن يحمى الملف باوراقه منها ومن احتمالات السقوط وكثيرا ماكان يحدث وتنزلق قدمه أيام المطر ، وربما لانه كان حذراً أكثر من كل المرات السابقة أفلح فى دخول البيت دون سقوط.

قالت هى بمرارة من فقد اعز عزيز لديه وهى تهبد صدرها براحتها : انه الموت وخراب الدار.

لم يعلق ، سرح بخياله فى البعيد، أكدت:

– اشتراه .. ابن عمك سوسة وبحره غويط ، إستانف يامرتضى .. لا تفرط فى حقك وحق الاولاد ..

– نحاول ..

قالها بيأس لكنها واصلت :

- ماضاع حق وراءه مطالب وحقك ظاهر مثل عين الشمس. هز رأسه مؤيدا . ثم شرع فى خلع ملابسه فناولته المنامه ليرتديها ويتمدد بطوله على الفراش .. مسنودا بظهره على الوسادة وكأنه مريض يحتضر وعيناه غائبتان عن كل ما يحيطه من أشياء ..

حدث نفسه قائلا :

« ربما يا مرتضى عملها أبوك، كتب الارض لابن أخيه كى يحرمك من الامتلاك ، لقد كنت دائما على غير هواه وارادته ، ارادك طبيبا ففشلت وفصلت من الطب ، جاهد ان يساعدك لتكمل تعليمك فى الآداب أو الزراعة أوحتى الحقوق فلم تسعفه ، كنت تخدعه وتكتب الشعر وهو العنيد الذى لم يعترض على إرادته غيرك ، وكم هددك وحرمك من المساعدات فى حياته ، كنت انت يا مرتضى نقطة ضعفه بحسب ماكان يعلن وكنت خيبة أمله أيضا، سحرتك دواوين الشعر وغيبك الدوران فى جنبات المدن سعيا لكشف لم يكتمل، ربما يا مرتضى باع بالفعل وقبض الثمن ، وربما كان أعلام الوراثة الذى جاءك مجرد إجراء لإكمال الصفقة ..»

قام وقلب فى أوراق الملف ، بدا له أن الحق ضاع فعلا وأن محاولات الاستمرار فى الصراع حماقة ، وبدا له فى نفس الوقت ان الاستسلام والسكون عنه وبلادة ، وتحير فى أمر نفسه مشدودا الى رغبته الصادقة فى ان يعيش ما تبقى من عمره فى سلام مع الناس ولو كف عن الحلم فى إحياء حقه المسلوب أو الافاقة والصحو وتجهيز نفسه لخوض النزال صارخا فى وجه الكل انه وريث شرعى

لأب لايجوز له التصرف فى املاكه على هذا النحو وهو فى أيامه الأخيرة فاقد للوعى والادراك بحسب ما أكده الكثيرون من أهل الكفر ، كان فى الذهن أطفال ومطالب ومسكن بائس وجيرة فاسدة وأجر هزيل ، وكانت هى ايضا هناك باحلامها فى زمن يختلف ان استعاد هو حقه الأكيد باعتباره الوريث الشرعى الوحيد للرجل الذى أكد له البعض أنه باع فى حضورهم بكامل وعيه وادراكه وقبض الثمن.

* * * * *

وعندما التقى بابن العم واضع اليد على ارضه وداره شعر بالخجل ، ربما توهم أن الاخر يلومه أو يهدده إن هو استمر فى قضية محسومة بحساباته على الاقل، كانوا قد توسطوا لكى يلتقى معه فى جلسة هادئة ، كان الآخر بملامحة الحادة ينظر نحوه باستهانة واستخفاف ، يتحسس شاربه وكأنما يتوعد ، قال أحدهم :

– الصلح خير والدم لايتحول إلى ماء يامرتضى ..

– طبعاً ..

أجاب هو .. لكن الاخر انتقض واقفاً ، وبحدة أعلن :

– الأرض أرضى والدار دارى ومن يفكر فى دخولها فسوف أدفنه فيها وهو حى .

لطف أحدهم صوته وهو يهدىء من عصبيته:

– لك حق .. كل الحق .. لكن الرجل جاء بنفسه ليؤكد لك أنه لايطمع فى كثير.أضاف آخر :

– يمكنك أن ترضيه بما تجود به نفسك ، وهو فى كل الحالات من

دمك ولحمك.

استحسن الكل الفكرة .. وأطرق المواطن مرتضى الماحى شعر أنه متسول رخيص أو معوق صامت يستجدى الآخرون باسمه حسنه تفيض، تضاءل وانكمش وتصبب العرق من كل مسام جسمه فارتعش ، قام على غير توقع منهم، مشى صامتا متغاضياً عن كل العبارات التى سمعها ولم ينشغل بتفسيرها أو الرد عليها .. وعند الطريق الزراعى وقف بآليه يطل على السيا رات التى ترسل أضواءها من بعد فتبدو العتمة المسيطرة .. ولايدرى كيف ولا متى ركب تلك السيارة التى تتجه نحو المدينة ، حتى الوجوه اختلطت وما عاد قادرا على تمييزها أو تسميتها لنفسه بينما يستعيد الأمر من أوله ويحاول تفسيره وقد ابتعد.

كان الملف فى يده وقد حسم أمره تماما وكانت هى تبدو سعيدة لانه صحا لنفسه واعلنها صراحة بأنه سوف يستمر فى مشواره سعيا لاستعادة حقه لآخر نفس فى عمره .

over not *

قبل البدء يلزم أن ننوه بأننا حصلنا على تفويض مؤكد وموثق ببصمة لسان المواطن متحت الكيال أو مزحت الكيّال كما أسميناه داخل السياق ، حصلنا على التفويض / التكليف / التنازل لكتابة الحكاية ، ولأن المواطن الحر يربط من لسانه فى بعض بلدان العالم العربى ، ولأنناسبق وأن أشعنا فى أو ساط المؤلفين والكتبة عنوان النص قبل أن نشرع فى كتابته خلافاً لما اعتدناه دوما ، لانه لاجناح على مؤلف يضحى بوقته نصف الضائع وبرصاص قلمه أو حبره ثم يلتزم أو لايلتزم بالوثائق المحفوظه فى ملفات المستخدمين باحدى الجامعات الاقليمية فى «بر» مصر ، وتخصٌّ على وجه الدقة بيانات حرفية عن المواطن موضوع النص دون سواه ، فسوف نجرِّب الخروج عن تلك الوثائق وتقاليد القصِّ الشائع فى آن واحد .

ويلزم أن نذكرٌ كل من يتمكن من إكمال هذا النص أن المواطن المذكور أدناه وعد بمناقشة الأمر برمتُّه على ملأ من الناس مستخدما كل أو بعض نفوذه لجمعهم واستكناه ردود أفعالهم ، وربما محاورتهم وإصلاح بعض ضلا لاتهم عنه وأنه جرؤ وأكد لأكثر من جماعة أنه سوف يتولى ترجمة الموضوع الى سبع لغات حيةٌ - مستخدما علاقاته المتشعبة - إن كان فى الكون سبع لغات حيةٌ .

ولأن البدايات أصعب من النهايات كما تدر كون ترددنا لأكثر من عامين عايشنا خلالهما الحالة ، وأشقانا زيادة الطلب على النص الذى شاع عنوانه قبل أن نخط فيه سطراً وكان همنُا الأساسى هو تدبيرالوقت - رغم أنه دائما يضيع- كى نقعد فى هدأة الليل ورقاد الزوج والأولاد لنسطر على الأوراق حكاية :

العشرة أيام الأخيرة
فى حياة المواطن متحت الكيَّال

يسعى الإنسان الطيب فى هذا العصر وكل عصر الى تحقيق مطلبين: المال والخلف الصالح ، ومهما تنوعت مطامح الخبثاء ومطامعهم فى عرض الدنيا الزائل ، فسوف نتعسف على مسئولتينا ونؤكد أنهم لن ينالوا فى نهاية المطاف خارج هذين المطلبين ثالثا، والتعسف النظرى حق مكفول لكل مواطن يهدف إلى ترشيد الاستهلاك وتحجيم النزوات ، ولماً كان المواطن مزحت الكيار بحساباتنا إنسانا طيبا ، وأنه كان يسعى خلال العشرة أيام الفاعلة من حياته موضوع الحكاية ، لتحقيق هذين المطلبين ، المال والخلف الصالح ، بوسائل مشروعه ، واذا كنا قد وصفنا تلك الأيام العشرة بأنها فاعلة فذلك لأنها اكثر دقة ودلالة ، ربما لأن الأيام الأخيرة قد توحى بنهاية عمر أو مشوار أو مرحلة ، ولأن المواطن مزحت باق وماثل بينكم إضافة الى كونه شديد الانتشار مثل « يسرى » ولانه باستخدام المنطق الصورى سوف يبقى ردحا من الزمان لايعلمه غير الرب الإله وحده ، فقد اهتدينا إلى حيلة ليندس عنوان النص المعدُل خاصتنا بين السطور ، واذا كنا قد سايرناه زمنا من حيث الظاهر فإن الباطن غايتنا و« مزحت » صاحبنا ، وانتم أيها الصامدون جمهورنا المقًدى ، وها هو الاشتباك بينى وبينه ينفضُّ بشهادتكم وأحداث الأيام العشرة الفاعلة تتواتر أو تتجلى :

***

– كيف أتزوجك يا "مزحت" وأنا أطول منك ببوصة؟

العب عقلة أو دبِّر حالك .

بذلك قالت بنت الجيران لمزحت أو متحت وهى تشفط عصير البرتقال الصيفى بدلال ، عيناها تعكسان شعاع الشمس ، والنهر الخالد ينساب بأمواجه شبه المطمئنة إلى رصيده المخزون خلف السد بعد تسع سنوات عجاف شح فيها الماء الوارد وتهددت الخضرة بجفاف آت والوجوه السمراء بضمور الخلايا والشحوب ، لكن الله سترها مع النهر ومزحت الكيار الذى كان قد اعتاد سماع مثل هذه العبارات من البنت الحلوة التى عشقهادون أن يكف ، وإن كان فى بعض المرات يعود مخزياً ومكسوفاً فانه فى هذه المرة ابتسم باطمئنان قبل أن يهمس لها :

– عندى لك مفاجأة مذهلة ، لقد ا خترع أحدهم حذاء رجالياًبنعل عال، وقد اشتريت حذاءين بالفعل.

هللت البنت الحلوة فرحاً وصدقته وتخيلت الحاجز الطولى بينها وبينه وقد انزاح ، شفطت ما تبقى فى كأسها من عصير البرتقال الصيفى ورجته أن يرتدى الحذاء بنعل عال فى نفس اليوم لتكيد الخصوم ، ويروى أنه فى مساء نفس اليوم شوهد المواطن متحت بجوار البنت الحلوة أطول قامة واكثر بهجة وإشراقا وأخف ظلا وأبرع بياناً ومن حوله مجموعة من سكان نفس الحى الذين حضروا عقد القران المفاجىء لهم رغم علمهم المسبق بأن هناك علاقة حب مؤجل بين البنت الحلوة والمواطن متحت ، قلة منهم عرفت سرَّ التأجيل وسر التعجيل لدرجة أن همس أحدهم فى أذن صاحبه:

- الدنيا ضحكت له .

كان يعنى المواطن مزحت ، ولعلها كانت نبوءة بانت بعض أماراتها ، أو حقيقة بحسابات البعض ، حتى حدث ماحدث فى اليوم السابع ، وحتى لانتقافز على الأحداث ، ولانه يلزم فى حالتنا أن نتمشى فى دها ليزها أحيانا بمنطق كلاسيكى مدروس ومعروف للمواطن « مزحت» نفسه باعتباره دارسا للأشكال الفنية وناقدا لها ، ولانه كثيرا ماكان يضرب عرض الحائط متجهما فى وجه دعاة البدع الوافدة الينا من بلاد الفسق والضلال بدعوى التجديدالذى هو فى حقيقتة مجرد خروج لا يستند الى أى تأصيل ، ويلزم أن نقر لحسابه أيضا أننا التزمنا هذا المنهج فى تسجيل الأحداث وجاهدنا أن نمشى على الصراط خلافا لدعوى بعض المحدثين من الشعراء الذين تنهال عليهم انتقادات الدارسين بقيادة الدكتور جابر ومن ساروا على نهجه أو دربه من الباحثين عن النص الشعرى المستقبلى المتأصل الخالص ومن بينهم صاحبنا ، فليهدأ بالا وليطمئن خاطره فهو فى أيد أمينه تستخدم قلماً نزيهاً لا يعرف الالتواء أو المخاتلة .

فى صباح اليوم الثانى جاءت للمواطن «مزحت» رسالة من مديرية الاسكان التابعة لموطنه الأصلى تطالبه بالحضور الفورى لتحرير

عقد شقة إحلال بدلا عن البيت الذى كان ملكا لجده الثالث على وجه التقريب وأصابه معول التنظيم الذى لاينتهى منذ سنوات تاه تعدادها من ذاكرته كانت الرسالة حلمامستحيلا يتحقق، فراح يلهث سعياً وهو بين مكذِّب ومصدِّق أن المصادفات الحلوة تتوالى تباعا،

كان فى برج سعده فزالت فى هذا الصباح السعيد كل المعوقات الادارية والفنية أو على الأقل غفلت عنه الى حد أنه عاد الى البيت حاملاً عقد الشقة مختوماً وموقعا عليه باسم محافظ اقترن اسمه فيما بعد بأفعال تزود رصيده فى شركة استثمار أموال سيئة السمعة ، يبدو أنه كانت لهذه الشائعات ظلالا خارج اطر المعقول وإلا ماراح يتمطى فى ظل الشتاء بعيدا عن الديوان وزهزهة السطوة، لكن هذا لايهمنا فى كثيراً وقليل مادام المواطن « متحت» قد تصادف وحصل على العقد ممهورا باسمه بعد صبر طال وضيافة ثقلت على زوج لأخته ألكبرى أوشك أن يطلقها بسبب وجود « مزحت » كعزول دائم فى حيز لايحتمل بقاءه اكثر من ليلتين وبعسر ، وحيث كان رحيله أو زحزحته برغم كل الوعود والأمنيات الطيبة قد تحول إلى شبه أكذوبة تتكرر كل صباح وهو يتحدث بزهو عن رصيده الذى كان يتنامى بعسر ومكابدة فى أحد البنوك بينما نسبة التضخم تتزايد بما لايقاس.

فى اليوم الثالث لم يحدث شيء يستحق التسجيل ، اللهم الا اذا اعتبرنا تربيط الكتب ورصها فى كراتين فعلا ذا دلالة .

فى اليوم الرابع ذهب إلى الجامعة والتقى بالأستاذ المشرف على رسالته ، ولأنه تصادف أن الاستاذ نفسه كان مرتبطا بمواعيد خارج دائرة العالم الثالث بأسره فى الصيف التالى، فقد حدَّد موعد امع المواطن متحت لتكون المناقشة فى سابع أيام الحكى المكتوب ، كان الاستاذ يرجىء ويرجىء ومتحت يتحامل على نفسه لقاء فى اثر

لقاء وإجازة من الاعارة فى إثر إجازة ينهيها استاذه ، لكنه فى هذه المرة حطّت الهداية وانفتحت ابواب السماء مستجيبة لدعاء ام المواطن « متحت» التى كثيرا ماكانت تطلب له من قلبها الراضى عنه أن تنفك عقدته وأن تعلو مراتبه ويكسبها دنيا وآخرة ، وعلى هذا أصبح مؤكدا أنه سوف يناقش رسالته العلمية فى سابع أيامنا كما اتفقنا ، وحتى تطمئن القلوب ويتأكد لها أننى لن أخلط فى الأيام أو أغالط أعود وأقرر أننا مازلنا فى رابع الأيام نحكى ، وليس من اللائق لمثلنا بعد هذا العمر أن يخطىء فى العد - أو يغالط - من واحد لعشرة ولنا فى البيت طفل رائع واسمه حازم عمره الآن ثلاث سنوات بالكاد وهو قادر على العدّ من واحد لسبعة ، بل انه يكتبها دون اخطاء ، ومهمااعترض جمهور النقاد على هذا التداخل فى النص من جانبنا لتسريب اسم الولد والاشادة به فنحن لها لأن الأحداث التى نخطها « ملاُكى» ، ويحق لناأن ندعمها أو نخففها بحسب هوانا ، متواطئين مع طيف الولد الذى حوّم فى الدماغ وقز على الورق مزاحماً وجه المواطن موضوع النص الأصلى بعض الوقت ، ومادمنا قد تخيلناه وعنّ لنا أن نذكره بالاسم عنادا ودون خشية أو رهبة من قلم صديقنا الناقد الحرفانى الذى قد يتصور أن الولد حازم دخيل على النص بينما هو جزء منه .. فلولاه ماكتبنا ولا نشرنا ولا احتملنا فساد الضمائر والذمم ولا صبرنا ، وايم الله ان فى مذهب الكتابة خدعة .

فى يومه الخامس ياسادة وحتى لانتوه ذهب المواطن متحت الى

البنك الذى أودع فيه مدُّخراته ، ومهما حاولتهم معرفة كمَّ هذه المدُّخرات أو مصادرها فلن أبوح ، هى سر من أسراره الخالصة ولايحق لأىٍّ منا أن يدس أنفه فيها الى هذا الحد ، كفى ما شاع عنه فى أزمنة السوء من أكاذيب لأنه صادقنا نحن المؤلفين والمثقفين والدارسين فى الأرض، وقد طالته الألسنة بالتشنيعات والافتراءات ردحاً من الزمان شأن مايدور وما دار بن الادباء والمتأدبين ، الموهوبين والأدعياء على مر العصور ، ما يشغلكم هو المدَّخرات وما اذا كانت شرعية المصدر من عدمه ويجوز لى أن اؤكد لكم أنه شرعى فأنا الوسيط بينكم وبينه حتى هذه اللحظة على الأقل ، وحق لى أن انبهكم لحقيقة تعرفونها بالقطع وهى أن كل الفئات العملية فى زماننا من تجار عملة وسبُّاكين ومتأفقين بلا مهن واضحة يتحلون بفضيلة التغاضى عن مصادر ثروات الآخرين وإن كانوا ينشغلون عمليا بمحاولات تجاوزها ، ولابد أن البعض منكم قد قرأ بعض ما نشر عن شركات توظيف الأموال أو تسريبها ، « والتسريب» فى بلدنا يقال عن الكلب الجربان أو العاطل من كل المزايا بحيث يفكر الفلاح فى الخلاص منه بتسريبه أو إغراقة فى الترعة مربوط العنق بحبل فيه حجر ثقيل يسكن فى الأعماق ولايهتز أو ينفعل فيفلت عنق الكلب مثلا، الحجر فى نهاية الأمر حجر ، ولست أدرى كيف يتداعى الى الذهن مشهد قاس الى هذا الحد ونحن نتحدث عن توظيف الأموال ، تلك الأنشطة التى شاعت مؤخرا فى وطن فقير يتم استنزاف أرصدته من العملة الصعبة بجراه

وجسارة فائقة، ولابد أن البعض قد أصابه نوع من الضيق أوالملل ان كان قد تورط هو أو من يهمهم أمره فى وديعة يشعر الآن انها ربما تكون قد راحت عليه.

مواطننا «متحت» لم يلجأ إلى هذه الوسائل ياسادة، مواطننا متحت فلاح منوفى حويط من أنصار طلعت حرب ، أودع فى بنك مصر كل مافاض منه احتياطا من غدر الزمان وربما فى أحسن الأحوال طمعاً فى الحصول على شقة يسكنها مع البنت الحلوة بعد أن يبنى بها، ولأن الخلو قد أصبح عرفاً جارياً لاحيلة فى الافلات منه ، حتى وان كانت مطامح المواطن المثقف من أمثاله لاتزيد عن امتلاك حيز يسعه وقت الرقادوالقراءةأو البحث أو قرض الشعر، حجرة فى سطح أو حجرتان فى بدروم رطب يعجل بآلام المفاصل والروماتيزم وأمراض الكلى شأننا وأيم الله نحن الشارحين لكم حالنا من بين السطور ومآل اليه المآل، متعففين عن الوصف نستعيد المواطن متحت الذى انفك نحسه وحصل على شقة فى المساكن الشعبية بفضل الله موزع الأرزاق والعقول والذى قالت له ام البنت الحلوة زوجه شرعا فى ذلك المساء بزهو الحماة:

– وشها حلو عليك.

ربما حدث المواطن نفسه قائلا لنفسه شيئا قريباً من هذا المعنى فى ظهيرة نفس اليوم الخامس بينمايخرج من باب البنك واضعاً كل رصيده المدَّخر فى حقيبة يده الصغيرة منحرفا ناحية اليمين بقوة دون أن يكون لهذا الانحراف مغزى أو دلالة أكثر من كونه مجرد

اتجـاه ، ولأننا لم نتـعـود فى طفـولتنا المـبكرة مـثل هذه الاشـارات الغامضة والغمزات الخبيثة ولم نحمل لأى الناس غلا مكتوما بسبب أنه يحمل حقيبتها مدُخرات زادت أو نقصت فانه يلزم أن نتدخل لكشف ذلك الدعىٌ خصـمنا الوحيد الذى يعرف نفسه جيداً ، وأن ننفى ماأشاعه عنا من مكابدة للحسد والحقد الطبقى وهو مالم يخطر ببالنا أبداً خصوصا أننا نعرف جيدا أنه محدث نعمة لملم حسابات الجمعية وفر خارج حدود البلد ثم عاد لينكر « لبدة» المرحوم والده وجلبـابه الأزرق ، مـدعـيا انه ابن باشـا أو عـالم من علمـاء الأزهر الموقرين أو صـاحب وكالة موروثة عن جد له قديم ذكره الجبرتى ، اكاذيب وادعاءات لاتستقيم على قدمين تليق بغطاء الرأس الذى أتى به من خـارج البلاد واعـتـاد اسـتـخـدامـه فى فـصل الشـتـاء دون أن يتـخلص من زره الذى على شكل كـرة صـغـيرة حـمـراء مربوطة فى خيط أسود طوله عشر سنتيمترات يسمح للزر بالحركة اكثر من زر طرطور البلياتشو فى مولد السيد البدوى ، وكما يبدو من السياق أنه لا هم لنا سوى كشف الحقـائق وتعريف الخلق بتلك الحكمة الخـالدة عن الجـذور المـدسـوسـة فى أعـمـاق النفس البـشـرية ، وكـيف أنه يسـتـحيل أن يخلع الانسـان تاريخـه وجلده وان كان يمكنه أن يغـير ثيابه أو سكنه أو وطنه أو لسانه ولقد لا حظتم عودتنا للاستطرادات التى تبـدو خـارج السـيـاق الأصلى رغم أننا لانطمح من خـلال هذا النص المتواضع إلى محاورة الواقع أو العصر الذى ساد فيه التبجح بحسـاباتنا على الأقل، لكن صـديقنا المـواطن مـتـحت الكيـار هو

الأساس والبؤرة ومركز الاشعاع وقمة البطولة وهو يتجه ناحية معرض السيارات الكائن على بعد خطوات عن يمين البنك، يدخل ويدفع من حر ماله مقدم ثمن السيارة الملاكى، دفع وتواعد على الاستلام بعد يومين يخلص فيهما اجراءات الرخصة بمعاونة بعض الناس من ذوى الحيثية الذين عرفهم متحت فى فترة تجنيده التى يصعب توصيفها لأننا لم نكن قد عايشناه بعد، وأى حكايات تخص هذه الفترة سوف تكون مجرد شائعات عنه تتواطأ لافساد العشرة أيام الفاعلة من حياته فى أذهان جمهوره القارىء .

فى صبيحة اليوم السادس أشرف وزوج اخته على رص الكتب خاصته في كراتين الملابس وفى حقائب السفر حتى جاء عمال النقل وحملوا كل شىء إلى شقته الجديدة فى البلوك رقم كذا المدخل رقم كذا شقه رقم كذا فى المساكن الشعبية . وذهب أيضا الى تاجر الأثاث ودفع مقدم ثمن حجرة نوم عربى وصالون مذهب وأعطى للرجل العنوان فبدا له أنه يتعجب، وعندما سأله المواطن متحت عن سر دهشته نفى أنه مندهش، كانت البنت الحلوة معه، وعندما نصحته بنعومة أن يذهب إلى شقته ويطالع أوراق الرسالة المزمع مناقشتها فى مساء الغد بالجامعة اكد لها أنه متمكن..

فى ظهيرة اليوم السابع ادخلوه مدرج المناقشة المزحوم متشحا بروب العلماء فوق حلته الجديدة البنى فاتح ورباط عنقه الثمين الزهرى وقميصه السمنى ، كان يمشى عل قدميه مزهوا يتبختر، جلس وقرأ ملخصا للرسالة فنال استحسان الكل وصفقوا بشدة،

وكلمة من هنا واعتراض من هناك واكتشاف خطأ نحوى عويص أكد المشرف أنه غلطة مطبعية، ثم استعراض لثقافة الطالب من خلال مجموعة من الردود الساخنة التى فتح الله عليه بها فأفاد واستفاد ، ثم نكتة فى ملحة فى فرحة فى قفشة صائبة تدكتر المواطن متحت الكيًار أو بدا لنا ، وأصبح لزاما علينا أن نكتبة هكذا مسبوقا باللقب العلمى الذى ناله فى لحظة توفيق نادر .. وهو حق لامراء فيه ولا جدوى من مجادلته لولا أن الإيقاع اللفظى يحكم الأمر فى النص القصصى الطامح، نتركها للصدفة، متحت أو مزحت أو الدكتور المواطن أو مجرد المواطن استمساكا بحقه فى المواطنة وهو من هو ، شباب وخفة ظل ووعى وحلم فى مستقبل آت ، لكن النفوس الحاقدة لاتترك الانسان فى حاله ، وجيران السوء لايكفون عن «النقنقة» والنقنقة بحسب علمنا اليسير لفظ عربى فصيح يخص الدجاج ويجوز على العقرب ويقترن اكثر بصوت الضفدع ، لكننا جرؤنا بعد إعمال الفكر وطلب السماع منكم فى غلطة متعمدة لإرضاء نزعاتنا الطاغية لمزج العامية بالفصحى، ضاربين عرض الحائط بالاصول المرعية والقواعد الثابته لقناعة صدقناها بشأن اللغة التى نتصورها كائن حى يتطور ويتجدد ويغير ثيابه البالية باخرى حسب الموضة، واستناداً إلى ماسبق شرحه نؤكد لكم أن « النقّ» من شيم الجيران ، وهو نقُ» آخر غير الاصطلاح الهندسى الشائع للتعبير عن نصف قطر الدائرة وكلكم أهل فضل وعلم وكرم، فاسمحوا لى أن أشرح لكم كيف أن « نقّ» الجيران هذا قد تسبّب

فى كارثة مروعة أو كاد ، اذ حيثما كانوا يتجمعون على عادتهم ويستعيدون ما انجزه متحت فى فترة قصيرة ، كان هو قد حط رحاله فى شرفة شقته الجديدة راكنا سيارته الجديدة على مرأى منه وهو فى استرخاءته الليلية المستتبةً يستعرض تاريخامن السعى المجانى فى جنبات المدينة ثم كيف تحول التراكم الكمى الى تغُير فى الكيفية وعلى نحو قد يبدو للجهلاء والحاسدين مفاجئا عكس العلماء امثاله ممن يفسرون الدنيا بوعى اكثر ، وربما بسبب هذا الوعى نفسه كان المواطن مزحت يرى أنه قاب قوسين اوأدنى من تحقيق مطامحه المشروعة فى زوج ترعاه وتلد وقد اكمل العقد الرابع بحسابات التقويم الهجرى وأوشك أن يفعل نفس الشىء بالتقوم الميلادى الأكثر طولا وانتشارا ، وبينما هو يقرر لنفسه أنه قد أصبح مستورا ومميزا ومستشعرا للأمان إذبه يسمع صوت ارتطام وينظر من علٍ فيرى لفافة مكورة من مخلفات لايليق بنا أن نغوص معكم فى تفاصيل مكوناتها تنفك وتتناثر على ظهر سيارته فتلوثها وتلونها على نحو استفزازى ملحوظ، ودفاعا عن ممتلكاته المنقولة اعترض بأدب طبعا وهو ينظر الى أعلى فى اتجاه ما استنتجة عقله الفاهم عن مصدر النفاية :

— عيب ..

لم يكمل عبارته فقد قاطعه صوت غليظ لرجل كان يكركر مدخناً نرجيلة على ما يبدو لأن صوت الكركرة كف والسباب المباشر بدأ للأفندى الحمار قليل التربية والأصل الذى من فرط نطاعته جاء وركن

سيارته التى لابد وأن تكون مسروقة فى الحيز الخالى أمام البلوك ليحرم أطفاله من اللعب ، وبأدب شديد حاول مزحت أن يدافع عن نفسه وربما يعتذر لكن الرجل استمر فى إهانته إلى حد أن جرؤ متحت وقالها:

- قلة أدب .

وسمع القهقهات وهى تنطلق من الشرفات والنوافذ فى صخب متناغم وكأنها كورال مدرب على الضحك الساخر من هؤلاء الأفندية المنفوخين، تحول الأمر الى مسخرة ونزل متحت ليملى فى قسم الشرطه محضرا ضد مجهول يسكن فوقه ويمارس سبه واهانته بشكل علنى ، وقد جاء أمين الشرطة معه وطلع الى الشقه موضوع الشكوى والتى فوقها وتلك التى تعلوها فلم يجد فى أى منها رجلاً أو امرأة أو حتى طفلا ، كأنما ذوّب الخلق طلوع أمين الشرطة الذى كان ينظر الى المواطن مزحت بدهشة وربما بارتياب فى مصداقيته بأنه حاصل على درجة الدكتوراه وآت لتوة ليستريح فى مسكنه لأول مرة ، كتب أمين الشرطة كلاماً على الورق ونزل .. وفور ابتعاده عن المدخل انطلق السباب هذه المرة اكثر عنفا وجرأة ذاكرا ام المواطن بسوء ، بل إنه سمع خبطات على باب شقته وصراخ وأصوات استعطاف حتى لاينفذ وعيده ذلك الذى هدد بذبحه وتقطيعه لكلاب الحى :

- ان كنت رجل افتح الباب ..

وبعيدا عن فكرتنا المسبقة بأن متحت قصير القامة فانه يلزم أن

نوضح أنه لم يكن خائفا على عمره بقدر ماكان حريصا على احترام نفسه والقانون ، وكان الآخر هنا يرغى ويزبد ، يبصق ويلعن على نحو متواصل ودون وهن ، وربما فى الفجر نزف المواطن متحت الكيار دماً من أنفه أو قبلها بقليل ، لايدرى فقد أرهقه النزيف والصوت والعجز عن التصرف أو الحركة فتاه وارتمى اثر اغماءة لم يحسها على مايبدو وان كان قد أحس لسعة الشمس الحامية على أم رأسه ، ولأننا دخلنا بحسابات النص الذى طالت سطوره على غير ماكنا نظن ونحسب الى اليوم الثامن من ايام الحكى ، فانه حق لنا أن نقترح عليكم لراحتكم وراحته أن ينام لنفسح الطرق لليوم التاسع

.فى صبيحة اليوم التاسع قام واغتسل ، ركب سيارته الملاكى ملوثة السقف وذهب الى اخته وزوج أخته الذى اندهش من شحوب وجهه وقذارة سقف سيارته الجديدة .. وقف زوج الاخت يستمع ، ولحسن الحظ كان اليوم جمعة فلا عمل ، حكى متحت عما كان وما جرى فاستدر العطف وولد الحماس بضرورة رد الفعل ، جاءت حماته والبنت الحلوة واستعادوه وسألت البنت برعب صديقنا متحت:

– وماذا سوف تفعل ؟ سوف تفعل ماذا ؟

– فى ماذا ؟

بذلك السؤال رد متحت على سؤال البنت فأوضحت الحماة أكثر:

هل ترضى لبنتى تربية العز أن تعاشر هؤلاء الغجرلمامة البلد ..؟ بنتى لا تدخل فى المساكن .

- وماذا أملك غيرها؟

بذلك استفسر متحت فتحمست البنت هذه المرة :ترضى أن ترمينى وسط الناس السفلة وأنت عاجز عن حمايتى منهم.؟

- المجرم ينال عقابه .. فى البلد قانون ..

بذلك رد متحت على البنت الحلوة التى بدا عليها عدم الفهم أو فى أقل تقدير عدم التصديق المطلق لفكرته ، وهنا تداخلت أصوات الحماة والشقيقة وزوج الشقيقة وجار تصادف أن دخل الباب المفتوح يتطلع الأمر ، غير ان صوت الحماة سيطر وانطلق :

- دخلنا بالمعروف ونخرج بالمعروف .

سمعها متحت فانهزم ، لكنه عندما استطلع رأى البنت الحلوة مستجيرا بوعيها المحتمل لم يحتمل ردها وهى تكشر ملامحها وتتحول الى وجه شرس لم يره أبدا :

- طول عمرك فقر .. طلقنى طلقنى أن كنت رجلا مازلت .

- انت طالق ..

قالها ليؤكد للمجلس أنه مازال رجلا ، وابتسمت الحماة بسمةغامضة وسحبت البنت خلفها ، ولا يدرى أحد من الباقين فى اماكنهم وقد غلفّهم الصمت وحط على رؤوسهم طير الشؤم فى لحظة إن كان صوت البنت الحلوة نهنهة أوضحكاً وهى تنزل الدرجات ، لكن متحت بات ليلة حزينة وقد استشعر الهزيمة الكاملة .

فى اليوم العاشر نزل متحت وكانت هى النزلة ، كان يقود سيارته وقد غاب نجم سعده وطلع نجم نحسه فعلا، كان مهموما بطباع البشر الفانين ، دوأسين النعمة ، نكارين الخير ، بياعين الود الانسانى، كان الفكر متاهات يتداخل أولها فى آخرها ومشوار العمر

الفانى يتراءى جرحا وجراحا وسراديب وأوراق وأشعار تعاسة ، مفازات تسكنها البوم وتحُوم فيها غربان / وطاويط/ ذئاب .. والسيارة تنفلت وتكسر شارة ، تنخبط بلورى، تقذفه من داخلها مرميا فوق رصيف ، هل نسى الباب الأيسر أم أن الباب انفتح بفعل الخبطة؟ من يدرى ؟ ارتطم وأنَّ وانسلخت منه الركبة ، انكسرت أرنبة الأنف والدم نزف ، أغفى أو غيبه الحادث برهة ، فتَّح عينه فشاف السيارة خردة ، فاسدة بالمعنى العلمى ، دوّخه المنظر، راح باغماءة عجز مفجوع بالهم، فتح عينيه فاكتشف الجبس الملفوف على الساق اليسرى ، كان الوقت مساء والأنف جريح والقلب يئس، ورآها أم السعد شقيقته الكبرى والزوج يطل بخجل وحنو .. اكملت الاخت عبارة وهى تخاطب زوج الأخت :

- ربنا كريم .. سترها معه

- انكتب له عمر جديد ..

بذلك رد الزوج .. فأضافت هى بفرح

- فاق .. حمدالله على السلامة يا متحت ..

اجابها متحت با يماءة وغامت فى عينيه الأشياء ، لكنه بدا له أنه سمع كلاما عن شقة عتبتها نحس وبنت لا أمان لها جاهزة للتخلى عن بعلها فى أول أزمة ، وجيران لارحمة فى قلوبهم وغيظ وحسد فى صدور الكارهين لكل من فتح الله عليه وحقق النجاح ، ويبدو أنهم تحدثوا عن ضرورة عودته ليعيش معهم حتى يفرجها الرحمن وتنحل الأزمة .

فى القمطر منذ - نوفمبر١٩٨٧

ادعاءات المواطن سخم سُخام رع

بيانات وثائقية غير رسمية :

الاسم الرباعي: سخم سخام سخموى ماعت

الوظيفة : مسجل قوائم ملوك الزمن الأول تم تحنيط جثته بأمر فرعون قليل الشهرة ، كانت له مقبرة وتابوت وتمثال على الباب الشرقى لكنه تعرض لمجموعة من التراكمات واختفى كل شيء حتى تم اكتشاف التمثال وتابوت المومياء فى بدايات القرن التاسع عشر من التقويم المعاصر الموافق نهايات الألف السابع لجلوس الملك خع سخم على عرش مصر ، وقد تم تدمير المومياء وإفسادها بفعل أثرى مبتدىء تميز بالخراقة وكان قد جاء مرافقا لغزوة أحد مشاهير القرن الفائت بدعوى أنه عالم مصريات .

وكيل المدعى الغائب: مفتش آثار فى الأربعين يصعب البوح باسمه الحقيقى خوفا على وظيفته ومختصر الاسم المستعار هو س.س.ر

المواطن الأصلى: جنوب مصر (قرية جنب وادى الملوك أومايسمى حاليا بمدينة الاقصر)

اللون : جرانيتى أحمر تحت الأتربة والوساخات

الشهود : ١- لوحة المجاعة الأصلية ، وقد تعرضت لاهمال حكام مصر من فراعنة الأسرات المتأخرة وبسبب عصور الانهيار المتعاقبة الى أن جاء أحد ملوك البطالمة المتأخرين وسمح باعادة تسجيل ماكان مسطورا على الأثر الأصلى (لم يكن فرعونا بأى معيار وإنما هو غاز استتب لأسلافه الأمر فى مصر وكان يجهل مثلهم تاريخها جهلا مطبقا ولايعرف حرفامن لغتها) وقد حدث أن أخطأ الكاهن المسئول عند قراءة النص وقام باملاء متعجل فتم تسجيل الاسم الأخر سخم سخام رع وجعل الوظيفة تتحول إلى : مضحك جلالة الملك زوسر والذى طول قامته شبر ونصف الشبر وربما جعل الأمر هكذا ليكون طريفا حيث لم يكن ثمة دليل على احتمال أن يكون الخطأ غير مقصود حباً فى الدعابة ومازالت لوحة المجاعة مطمورة تحت أنقاض المدن التى خربتها جحافل الغزاة من الفرس والرومان وكل من تبعهم ويلزم البحث الجاد لإخراج اللوحة الأصلية .

٢ (كا) سخم سخام سخموى ماعت (روح) وهى حائرة منذ

تدمير مومياء المذكور أعلاه ، تبحث عمن يسمع حكاياتها دون جدوى

٣ مجموعة من أوراق البردى المسلوبة موزعة على متاحف لندن واللوفر وبرلين وتورين وغيرها من متاحف العالم بالاضافه إلى هواة جمع الآثار وتجارها فى العالم الغربى على وجه التحديد.

٤ التمثال الأصلي وهو مركون فى دار آثار فرعية باحدى عواصم المحافظات ومدون اسفله الاسم الحقيقى والمهنة والديانة ، (ومنها يتضح ان المدعى كان من عبدة الاله خنوم ولم يعرف فى حياته شيئا عن الاله رع ولم يكن له عليه ولاية طوال حياته انما آمنت الروح مؤخرا بالاله رع باعتباره الها مصريا يستحق التقديس)

الادعاءات : متشعبة على هيئة دلتا النهر فى الزمن القديم واخطبوطية كما يقال فى الزمن الحديث

* * * *

أوهام طالب الآثار حول تمثال رمسيس :

كان قد أخذ الأمر بجدية تفوق ما يمكن احتماله ، بمعنى أنه وهب نفسه لاستكمال أحد البحوث حول أصل التمثال وتاريخ صنعة وكل

النصوص التى تتحدث عنه ، وكثيرا ماكان يثير مناقشات عجيبة لا تخطر على بال أحد وتسفر دائما عن بلبلة فى أوساط الطلبة ، ومرة جاء ببردية وعرضها على الاستاذ مدعياً انها مجرد اكتشاف ضمن مجموعة من الاكتشافات المزمع استكمالها ، وقد عجب الاستاذ وطلب منه تسليمها فورا الي مصلحة الآثار فلم يمتثل للأمر بدعوى انها ستكون فى أمان معه ولن تتعرض لأى سوء.

فى احدى الامسيات وبينما المدينة غافية وحارس التمثال راقد على قاعدته الجرانيتية جاء الطالب وجلس عند قدم التمثال اليمنى وأخرج آله حادة وراح ينبش بها عند الكعب تماما وظل على هذا الحال ينبش فى تؤدة وعيناه تتلصصان على الحارس محاذرا ان يكتشف أمره ، وقد انقضى الليل بطوله على هذا الحال حتى بدأت المواصلات مسارها المعتاد فقام من جلسته بينما كان الحارس يتحرك حركة عفوية ، نفض الطالب ملابسه وتخلص من ذرات الحجر وهو يدارى سلاحه ويتجه إلى محطة المترو دون أن يلحظه أحد ، وقد أدهش الجميع عند ما وقف فى المحاضرة يعلن بحماس اليقين رأيا غريبا قائلا للأستاذ :

- رمسيس الذى يقف الآن مشدود القوام شامخ الأنف متطلعاباستعلاء وشموخ إلى كل الكائنات عند موطىء قدميه لايحمل ملامح الفرعون الحقيقية ، إنه مجرد تمثال مكرر، نسخة مقلدة من التمثال الحقيقى الذى ضاع.

دهش الاستاذ من تلك الدعوى وقال بعد تفكير بشىء من المكر:

– وماهى أدلتك على هذه الدعوى؟

أجاب الطالب بحماس :

– عندى مجموعة من الوثائق ، وهناك دليل آخر ، أنت قلت لنا ان التمثال كتله مصمته بينما هو مجوف من الداخل ، وأنا ازعم انهم سرقوا التمثال الحقيقى،وهربوه فى غيبة الحراس أو حتى فى حضورهم.

اصفر وجه الأستاذ وبدت عليه الحيرة لحظات ثم تماسك وراح يسأل الطالب بنبرات وقورة :

– والوثائق ؟ إين الوثائق؟ الموضوع خطير كما ترى ولابد من دليل .

ورد الطالب باستخفاف وهو يحدق فى عينى الاستاذ :

– الوثائق عندى ولن تراها الابعد التحقيق فى الأمر كله ، أنا اعتبرك مسئولاً معى إلى أن تتضح الحقيقة

وهنا اغتاظ الاستاذ من تلك الجسارة التى تصل الى حد الوقاحة ، أحس بضيق شديد وطرد الطالب من المدرج ، وساد صمت انقسم الطلبة والطالبات بعده إلى فريقين متخاصمين أحدهما يؤيد الاستاذ فى سلوكه بينما الآخر يرى أن الاسلوب الذى اختاره بطرد الطالب تنقصه الكياسة وهو على كل حال اسلوب لايتسم بالديموقراطية وأنه كان من الواجب مناقشة القضية مادامت فى مجال العلم بدلا من استخدام السلطة فى طرد من يخالفون الأساتذة فى وجهات النظر ، وقد رد الاستاذ على ذلك الفريق المعارض بأنه

يأسف لماجرى وأنه لظروف خاصة لم يكن مهيئا للاسترسال فى مناقشات تتسم بهذا القدر من الخطورة فى هذا اليوم بالتحديد، ثم وعد الطلبة بمناقشته فى المحاضرة التاليه وطلب منهم إبلاغ الطالب بذلك وأنه ربما يتزود بالرجوع إلى بعض المصادر حول الموضوع ليكون النقاش أجدى .

لكنه فى المحاضرة التالية والتى تلتها لم يظهر الطالب وظل غائبا طوال العام الدراسى وكأنما ابتلعته الأرض فى غفلة من جميع الناس. فى صباح الامتحان تساءل الطلبة والطالبات عن زميلهم الغائب فقال أحدهم أنه سمع أنه أصيب بلوثة فى عقله ودخل مستشفى الأمراض العقلية، وعقب آخر بأنه ربما تعرض لبعض الشرور لو صدقنا الأساطير التى تقال عن لعنة الفراعنة لانه اكتشف أو كاد ان يكتشف سرا لايجوز اكتشافه ، وهنا همس أحد الطلبة فى اذن زميل له بأنه تصادف أن مر بميدان رمسيس فى ذلك المساء التالى لليوم الذى اختفى فيه الطالب وقد رأى بعينى رأسه مجموعة من علماء الآثار يلتفون حول قاعدة تمثال رمسيس ويبدو أنهم كانوا يقومون بعملية ترميم لساق التمثال اليسرى و أن كان غير متأكد من وجود استاذهم وسط الجمع.

وفى آخر أيام الامتحان همست بنت فى أذن زميل لها كانت على علاقة وثيقة به يمكن أن توصف بالحب والثقة قائلة أنها سمعت من أحد الرجال المرموقين وهو يمت إليها بصلة قرابة كما يعرف الطالب نفسه، سمعت بأن زميلهم محبوس منذ ذلك اليوم الذى ناقش فيه

استاذه على ذمة التحقيق فى قضية مخدرات ، وسرعان ما نشر الولد الخبر على كل من صادفه من الزملاء دون أن يدرى لماذا وربما كان يشك فى أن الأمر لايزيد عن قضية ملفقة أو شائعة لا أساس لها من الصحة.

حكاية الولد الذى كان يصعد الهرم :

ولما تخرج المواطن س.س.ر من معهد الآثار عينوه مفتشا فى منطقة الأهرامات و قد تعرف على ولد من نزلة السمان كان بارعافى صعود الهرم بشكل مميز لدرجة أن السياح كانوا يدهشون بسبب جسارته فى الصعود بيسر وكأنه يمشى على الأرض ، كان عمر الولد لايتعدى الحادية عشرة بحال من الأحوال، وقد أحبه مفتش الآثار وكان يعطف عليه لأنه عرف أنه ابن لحارس قديم من حراس الهرم مات فى ظروف غامضة منذ سنوات ، كان الولد اسمه عادل وكان يتيماً ومحببا إلى نفس مفتش الآثار لدرجة أنه لما كان يغيب يسأل عنه كل من يصادفه ، وعند ما يقابله يجيبه عن كل الاستفسارات التى يطرحها حول منطقة الاهرامات وكان يسمح له بدخول حجرة الدفن بلا مقابل ، وقدا اكتشف المواطن س.س.ر من خلال المناقشات أن الولد عادل لم يكن خال الذهن تماما عن حقيقة البناء لدرجة أنه كان يحاور المفتش نفسه فى بعض الأمور ويذكره ببعض التفاصيل الدقيقة التى نسيها بسبب مشاكله الاجتماعية ، والعجيب أن الولد عادل كان يجيد الحديث حول الاهرامات وتاريخها بالانجليزية والفرنسية وأحيانا بالاسبانية ، يمكن القول أن الولد بدا

لمفتش الآثار كنزا وأعجوبة ، كان أحد حراس الهرم يكره الولد عادل ويطارده أحيانا ويمنعه من صعود الهرم ، لكنه فى حضور المفتش كان يحس أن الأهرامات كلها ملك له ، وقد دبر الولد وسيلة لاشباع رغبته فى صعود الهرم وكتابة اسمه على أحجار قمته، وقد باح للمفتش بأنه نوى تسجيل اسمه على كل أحجار القمة وعددها الف حجر تقريبا وعندما سأله المفتش مستفسرا عن عدد أحجار الهرم أجابه بأنها تزيد على المليونين فدهش المفتش وقال للولد أن الأمر سوف يرهقه لكن الولد هون الأمر وقال انه يلزمه حوالى ثلاث سنوات لو سجل اسمه كل يوم على حجر وابتسم المفتش للولد وأعطاه كتيبا من مصلحة الآثار مخصص للسياح ويحتوى على مجموعة لطيفة من الصور الاثرية .

فى صباح باكر ارتدى الولد ملابسه وقال لنفسه أن ميعاد المدرسة لم يحن بعد وحسب الوقت وقال لنفسه : يمكنى أن أصعد وأسجل اسمى قبل استيقاظ الحارس ، حام حول الهرم فلمح الحارس الذى لايحبه وتوارى عنه ، كان الجو مشحونا بالضباب وكان هناك مع الحارس سائح غريب وعدد من الحراس وكان ثمة شىء يقومون بحمله فى سيارة كبيرة نصف نقل كانه تمثال أو مومياء ، لقد سمع الولد همسا غريباً فلم يهتم، كان مشغولا بنفسه وبدأ فى صعود الهرم ، وقد انطلقت السيارة بحملها بينما الولد يصعد فى طريقه إلى القمة ، وعندما بلغها بدأ يكتب اسمه على أحد الاحجار فى عجلة من أمره وهنا ظهر له الحارس الذى كان يصعد

خلسة ويقترب منه بشكل بدا له أنه سوف يمسكه وقد شخط الحارس فى الولد بكراهية طالبا منه النزول ومهددا إياه بأن يرميه، وقد توترت ملامح الولد ولم يستطع مقاومة الخوف، أحس بنوع من الدوخة وعندما تحركت قدمه اليمين تتحسس الحجر تحته انزلقت وأفلتت يداه الممسكتان بالحجر الأعلى فتدحرج إلى الهاوية كأنه كرة من المطاط تهوى دون أن يعترض مسارها شىء ، هكذا اذن كان الحارس سببا مباشرا فى موت الولد عادل وقد نزل مسرعا وأفهم الحراس الآخرين أنه لو شهد أيهم ضده فسوف يعترف بتفاصيل كل ماجرى فى منطقة الاهرامات منذ عين فيها حارسا ويجر بذلك أقدامهم معه ، وكما قال مهددا « وعلى وعلى أعدائى» لكن الحراس كانوا من محترفى التكتم على الكثير مما يعرفون ، لكنه اتضح فى مساء نفس اليوم أن ظنهم قد خاب لأنه حدث أن السائح الذى هو فى حقيقة أمره مجرد لص آثار كان قد قرر شحن ما أخذه من آثار على ظهر إحدى السفن وحدث أن تصادف أن شك أحد المختصين فى الشحنة وفتح الصندوق واكتشف الأمر ورفض بعناد ما قدمه السائح من عمله صعبه كنوع من الرشوة ليسكت ، غير أن المختص كان حديث التخرج ويقوم بعمله بصورة مثالية تفتقد إلى المقدرة على السكوت عن مثل هذه الامور فأبلغ الشرطة وتم القبض على لص الاثار متلبسا وبدء فى التحقيق معه فأعترف بكل شىء وتم القبض أيضا على كل حراس منطقة الأهرامات .

ولقد بدا لمفتش الآثار الذى كان حزيناً من أجل الولد عادل أن

سرقة الآثار فى هذا الصباح لها علاقة بسقوط عادل فأسرع يدلى باقواله لمن كانوا يتولون التحقيق موضحا أن عادل له علاقة بالأمر وأن سقوطه من فوق الهرم يشبه ماراه فى أحد الأفلام الأمريكيه التى تناقش نشاطات عصابات المافيا . وقد شكره المحقق على هذه المعلومات ذات القيمة .

ومن يومها التفت المواطن س.س.ر إلى حقيقة كانت غائبة عن ذهنه فقال لنفسه . «إنهم يسرقون الآثار » وبدأ يستعيد حكاية زميل دراسته الذى ناقش الاستاذ مرة عن تمثال رمسيس ثم اختفى بصورة اسطورية ولم تظهر له آثار ، فقال لنفسه أيضا « انهم بارعون فى الخلاص من كل من يعرفون » وخاف على نفسه فقرر أن يبدو جاهلا بكل ما يدور حوله وأن يجهد نفسه فقط للقيام بتسجل أمين لكل الحقائق التى عرفها والتى يمكن أن يكتشفها، وطوع نفسه على عدم البوح بشىء مما يعرفه لأحد حتى زوجته ، وقد تيسر لمفتش الآثار أن يقوم بعدة أبحاث ذات قيمة علميه خاصة ومن بينها بحث يستند الى بعض الوثائق وتدعمه مجموعة لابأس بها من القرائن حول موضوع المواطن سخم سخام سخموى ماعت الذى نقلوا اسمه من لوحة المجاعة الأصلية بطريقة خاطئة على اللوحة الأخرى فأصبح بذلك يدعى سخم سخام رع والذى من كثرة ما اهتم بدارسته بشكل تفصيلى متتبعا حياته ونشاطاته وما تبقى من آثاره أصبح يشعر انه جزء منه ، لدرجة أنه كان يتجلى له أحيانا فى أمسيات الشتاء ويحدثه بالفعل شاكيا مما حصل له بسبب لصوص

الآثار وحراس المقابر المرتشين ، ولولا أن مفتش الآثار كان يمتلك قلبا شجاعا لا يعرف الخوف ولولا أنه اهتم فى فترة سابقة من حياته بتحضير الأرواح وآمن بعدها بفكرة الحلول بمعنى عودة الأرواح لتحل فى أجساد جديدة فى أعقاب كل دورة فلكية مداها نحو سبعة آلاف سنة . لولا كل هذا الايمان لكف عن البحث وما صدق على كل حال أنه هونفسه الذى سجل بقلمه تلك الملاحظات العجيبة عن حياة سخم سخام رع ، ولربما كان يقول لنفسه انها مجرد أوهام أو أن ما تم تسجيله ليس الاوثيقة قديمة قام بنقلها حرفيا من كشكول يملكه . ولقد رفض مفتش الآثار شكوكه هو نفسه فى أن يكون قد اصيب بما يسمى بلعنة الفراعنة فغاب عقله أو كاد فاستمر دءوباً على ما كان قد بدأه وعكف على تسجيل كل ما كان يراه متدرجا من الزمن القديم بنظام حتى العصر الحديث قائلا لنفسه « ربما يفيدهم هذا البحث مستقبلا» لكنه بسبب الوسواس الذى كان يلازمه دوما ويبرع فى زرع المخاوف فى صدره عاد وبعثر ما كان مسطورا بنظام فى كشكوله الأول الذى مزق أوراقه قبل ان يحرقها وراح يطالع ما سطره عن ذات الموضوع فى كشكول آخر ويهز رأسه استحسانا ويقول لنفسه : « حتى لو وقع الكشكول فى أيديهم فسوف يحيرهم ويجعلهم عاجزين عن لملمة أطراف ما يحتوية » وارتاح المواطن س.س.ر نوعا وعقد العزم على معاودة ترتيب المعلومات بعد أن يحال على المعاش.

* * * *

جانب مما ذكره المواطن سخم رع على لسان مفتش الآثار :

١ - نبوءة

اطمئنوا بالا فسوف يعود الرجال الرجال، بناة الاهرامات والرعامسة والتحامسة وغيرهم من ملوك الزمن الأول، سوف يعود على الأخص سقنن رع تاعا وأحموزى وكل الشجعان من أسلافكم بعد طول الرقاد ، ولسوف ينساح الرجال فى اتجاه الشرق ، يكنسون ما تبقى من فلول الغزاة ، غزاة الزمان الأول لم يرحلوا إلا بعدما ضحى الرجال.مومياء سقنن رع تشهد بماكان ، الدماغ المهشم ببلطة غادرة ، واللسان المضغوط عليه بالاسنان وعجلة الكهنة فى تحنيط الجثمان ، كل ذلك يوضح أنهم لم يرحلوا الابعد أن ضحى الرجال والملوك ، بعدها انساحت جيوش أحموزى فى اتجاه الشرق أن كنتم نسيتم ما جاء فى برديات الأسلاف وما سطروه لكم فى كتاب الموتى ومتون الأهرام ووصايا الحكيم القديم ايبور فيلزم ان تعاودوا فتح الصفحات ، ربما لتصلوا بعدها إلى سر الأسرار أو ما كان يدور فى قدس الاقداس ، انما الأكيد ان سيعود الرجال الرجال فى ثياب جديدة وسوف يتم إخراج كل من وطئت أقدامه ارض مصر غصبا ويومها يلزم أن تبحثوا مع الرجال عن لوحة المجاعة الأصلية ، أن تصلحوا مومياء البائس سخم سخام رع ، أن تعيدوا كل ما سلبوه منكم وأنتم فى غفلة من أمركم بدءا بحجر اللغات الثلاث الذى فك رموزه وافد أجنبى مع غزوة وصلتكم فى

بدايات القرن الفائت وانتهاء بآخر جعران مسلوب بواسطة سائح يهوى جمع الآثار من كل بلاد الحضارات البكر. وثمة أشياء لا يجوز نسيانها بحال من الأحوال : قناع حتشبسوت الذهبى ، عصا اخناتون ، وأساور وقلائد الملكات تى ، أباح حنتب وتتى شرى وغيرهن مما اخذوه وجعلوه لزوجاتهم فى البلاد البعيدة . ثم برديات كتاب الموتى وكل النصوص ذات القيمة والتى تحكى عن ميراثكم الذى تجهلون. ساعتها سوف بجىء الرجال ويسود الحب والسلام، وشمسكم التى كانت تطلع عليكم كل صباح باستحياء تستعيد جرأتها على التطلع إلى وجوهكم فتتفتح عيونكم على نورها الحنون وترون ما يدور حولكم، وسوف ينمحى العماء من كل العيون وتزول أشباح المخاوف .

صلوا لرع .

٢ - وشاية :

ليست وشاية كما تحسبون ، إنها شهادة لوجة الإله الذى تعبدون ، كان ثمة تمثالان بائسان من حجر الجرانيت الأحمر لمواطن يدعى سخم سخام وقد ظلا مطمورين تحت انقاض قرية قديمة عبرتها جيوش الغزاة ، وقد تم اكتشاف احدهما فى أوائل خمسينات هذا القرن عند أحد أبواب المقبرة وعلى قاعدته كتابة بخط واضح يمكن تفسيره ، أما التمثال الآخر فقد تم اكتشافة قبلها بسنوات لكن ما كان مسجلا على قاعدته استحال إلى حروف مطموسة وباهته وهو موجود فى أحد متاحف الأقاليم بعد ان واجه العديد من الصعاب ،

فى اول الأمر شالوه وحطوه على عربة تجرها الجياد العربية الأصيلة ، ثم وضعوه وسط كومة من التماثيل وأوراق البردى والجعارين والادوات التافهة فى أحد مخازن القلعة ، ثم نقلوه الى دار بالازبكية وبعدها استقر حيث هو الآن ، كان هذا هو ماحدث للتمثال الثانى أما التمثال الأول فقد لاقى من الأهوال ما جعله أشد بؤسا ، ذلك أنه شاف بعينيه الغرباء يدخلون المقبرة ويدمرون مومياء المواطن سخم سخام بعد ما سلبوا كل ما وجوده من حلى وأوراق بردى ، بل إنهم كسروا التابوت نفسه ، وقدكره التمثال حياته من يومها لأنه بتدميرالومياء ستتوه الروح فى عوالم مجهولة. هكذا اذن ضاعت « كا » سخم سخام لسنوات طوال حرموها خلالها من الاطمئنان الى وجود بدن تستقر فيه وظلت تحوم فى ظلمات العالم تندب تاريخها المطموس وتنعى حظها التعس الذى جعلها تدور فى مسارات بلا غاية ، تماما كما حصل لتمثاله فى رحلة الضياع المألوفة .

فى البدء حملوه على سيارة نقل وربطوه بحبال متينة ثم وضعوه فى صندوق ودفعوا بالطبع لكل من رأى وسكت ، كان اسم السفينة التى استقل ركنا على سطحها « فريدم شب » وقد قال السائح المثقف والذى خلص كل شىء بعملته الصعبة موجها حديثه الى التمثال:

– لا تحزن ياصديق فسوف نهتم بك فى بلادى ، سوف نضعك فى المكان اللائق لتراك الملايين من أبناء وطنى المتحضر وسوف تخلص من غباء الجهلة الذين عاشرتهم آلاف السنين دون أن يلتفتوا

إليك ، كانوا كما تعرف يحسبونك مسخوطا غضب عليه الاله فحوله حجرا ، هيء .. هيء .. الم يكن الأمر كذلك ؟المساخيط؟ أنا أعرف َلغتهم ، تعلمتها من أجل ما يمكن تخليصه من بين أيديهم ، سبق أن خلصت مسلة كاملة وسليمة؟ وسكت اللص المثقف كما سماه التمثال بعدها ، وراح يحشو غليونه ويشعله ويمتص دخانة ملتذا . وعندما وصلت « فريدم شب» إلى الميناء انزلوا التمثال ثم نقلوه بحرص بالغ إلى العاصمة ، وفى الشارع الرئيسى حيث يقوم المتحف انزلوه مرة أخرى ، كانوا يهنئون الرجل وكأنه فتح عكا فعجب التمثال الذى وسعوا له مكانا نظيفا وفسيحاً وأحاطوه بزجاج شفاف وسلطوا عليه الأضواء بشكل رائع ، كان المكان مكيفاً وكانوا يتوافدون بنظام ودأب ودون كلل ، يقفون ويتأملون منبهرين ويتجادلون فى بعض التفاصيل الخفية ، هكذا إذن ظل التمثال منصوبا فى متحف غريب لسنوات طوال وقد جاءه اللص المثقف الذى قام بنقله يوما وقال من بين شفتيه بحماس:

– مسخوط سخم سخام سخموى ماعت ، كيف الاحوال ؟ جئت اخبرك بأنه هناك صفقة لو تمت لاستحق اسمى أن يسجل فى صحفات التاريخ ، سنشترى هذه المرة كل آثاركم المكررة فنقدم للعالم المتحضر خدمة لاينساها ، كل هذا من أجل عملتنا الصعبة يا صاحبى ، إن لها فعل السحر ولها قدرات جمة على شراء التماثيل والمسلات والجعارين بنفس قدرتها على شراء ذمم المرتشين وذوى الضمائر ومحدودى الافق والاذكياء .



وقد سكت التمثال طبعا لأنه لم يكن مطالباً بالرد، ليلتها حامت حول التمثال روح سخم سخام قلقة متوترة مغتاظه بسبب ما كان يشيع أيامها عن احتمال عقد صفقة لبيع الآثار المكررة « إن أرواح الأسلاف تطن فى فراغ الوادى دون أن يسمعها أحد ومياه النهرتلعن كل من يشرب منه جرعة ويرضى بمثل هذا التفويط المهين بالثمن البخس» بهذا كانت الروح تهدر دون أن تدرك انها تخاطب تمثالا بائسا وعاجزاً من حجر الجرانيت .

ومرة اخرى وبعد سنوات قليلة جاءت الروح وهى فى حالة من الهياج يرثى لها وكانت تتشكى هذه المرة من شر رهيب كما قالت . « انهم السماسرة وتجار الخردة واللصوص من ذوى الوجاهة هذه المرة ، يجتمعون سرا مع مجموعة من الغرباء لبحث الإجراءات الواجب اتخاذها لاتمام صفقة آثار يستحيل تعويضها، هذه المرة سيكون الأمر سطوا ولصوصية وسوف تباع كل دلالات حضارتنا فى واحدة من مدن الغرب وهى على كل حال مقر عالمى للسماسرة والأفاقين وهواة المغامرة من ذوى الأرصدة الفلكية الأرقام ، دعك أيها التمثال من اللصوص الصغار من يطمعون فى بضعة آلاف ، ودعك من حراس المناطق النائية الذين يفرطون فى بعض الجعارين أو حتى مومياء بائسة لمواطن مجهول ، كل هذا لايهم ، الأمر هذه المرة خطير ، انه مهزلة تنمحى بعدها كل دلالات الحضارة فى وادينا الحبيب .. اوه ، أنت لا تسمعنى .. قد لايعود الرجال الرجال الذين فات على موتهم الأول سبعة آلاف .. هيه .. ماذا تقول»

وكانما أجهد الروح كل هذا الحديث واغتاظت من صمت التمثال، لكنه لم يكن ثمة مهرب من أن تطرح مخاوفها حتى ولو لتمثال حجرى

أصم ، تساءلت الروح هذه المرة دون أن تنتظر جوابا « هل يجرؤ واحد من الأبناء هناك على ابلاغ الشرطة وحراس الآثار الشرفاء وحراس الحدود أوحتى علماء اليونسكو »

وهناسكت التمثال أيضا لأنه اعتبر نفسه غير مطالب بالرد ، كان يقول لنفسه « إنها روح ثرثارة وتحب الوشاية كطبعها القديم ، ثم انها وجدت لنفسها بدنا جديدا ويمكن بذلك أن توضح الأمر لوكان حقا وصدقاً إلى كل الجهات المعنية ام ترى هو الحرص على سنوات العمر الجديد ؟ » بهذا كان التمثال البائس حائراً بالفعل وعاجزا حتى عن الانتقال إلى أرض مصر ليرى ويسمع بنفسه كل شيء كارها أن يصدق تلك الوشايات متخوفا أن يكون لها ظل من الحقيقة .

صلوا لرع.

الطليعة ابريل ١٩٧٥

المحتويات

رقم الايداع : ٩٦/١١٢٥٠

الأمل للطباعة والنشر ت: 3904096